الأعلام من الأدباء والشعراء



أبو تمام

عَصْرُهُ - حَيَاتُهُ - شِعْرُهُ

إعداد

محمد رضا مروّة

ماجستير في اللغة العربية وآدابها

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء

أبو تمام

عصره - حياته - شعره

إعداد
محمد رضا مروة
ماجستير في اللغة العربية وآدابها

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 LE
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

المقدمة

حينما تقف أمام التاريخ الأدبي، يبرز أمامك أبو تمام شامخاً بصنعته الجميلة ومعانيه الكثيفة. تلك المعاني التي جمعت بين الفكر والفلسفة، والأدب والاجتماع. إنه فاتح وغواص.

فاتح للشعر باباً جديداً، سار على دربه من جاء بعده.

وغواص وراء المعاني الفلسفية في بحر اللغة المتلاطم.

ونراه يتمثل في شعره السمو والرفعة، والكبرياء والعظمة. حتى يغدو عنده الرمز أفقاً واسعاً لا يحيط به إلاّ الأخذ من كل علم بطرف.

وكانت الصعوبة في الولوج إلى عمق أبي تمام من خلال شعره. إذ أن الباحث يحتاج لتفهم ذلك الشعر إلى دورة عقلية لا تستقر على حال، ولا تقف عند حدود.

ومع ذلك كله فإن شعره متعة العقول المثقفة، القادرة على التقاط معانيه، وفهم صناعته اللغوية.

وكان هذا البحث المتواضع، وهذه الدراسة التي تكشف عن جوانب حياته العقلية والفنية، وآرائه الفكرية والفلسفية. ونعتبر عملنا هذا نقطة البداية في عمل جاد وشاق، من الأعمال الأدبية لرموز عاشوا في فكرنا وفي ضمائرنا.

وأملنا أن نكون قد رسمنا صورة عن أبي تمام، وأحطنا بألوانها المختلفة. ويبقى الحكم في ذلك إنساننا الذي نعمل من أجله. ذلك الانسان القادم مع طموح جارف.. هو ذلك الذي يصنع التاريخ، ويصنع المستقبل.

محمد رضا مروة

٢٠ ـ ٢ ـ ١٩٨٩

١ ـ العصر العبـاسي

أ ـ الحياة السياسية
ب ـ الحياة الاجتماعية
ج ـ الحياة العقلية

١ ـ الحياة السياسية

هيأ العباسيون لقيام دولتهم عن طريق الدعوة السرية لإمام هاشمي، يخلص الموالي من حكم بني أمية، ويحقق المساواة بين المسلمين في جميع الحقوق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

لكن العباسيين بعدما سيطروا على مقدرات الأمة، استبدوا وأعلنوا أنهم أصحاب الحق الشرعي في الحكم والخلافة، وأصحاب حق إلّهي في الدولة والسلطان. وأبعدوا أبناء عمهم العلويين، الذين ثاروا عدة مرات في ذلك العصر. ونكبوا البرامكة وبني سهل، ممّا جعل النزاع يستحكم بين الفرس والعرب. وظهر في هذا الجو تيار شعوبي بغيض، رافقه تيار إلحاد وزندقة لا يقل عنه عنفاً لهدم الاسلام والعروبة معاً. ممّا هيأ لقيام ثورات منها: ثورة العلويين، وثورة بابك التي سحقها المعتصم.

واعتمد المعتصم على الرقيق التركي لسحق الثورات الناشبة، وأخذ يستكثر من شرائه وطلبه من سمرقند وفرغانة وأشروسنة. . «وكان جمهور هذا الرقيق بدواً حفاة، فكانوا

يركبون الخيل ويركضونها في الشوارع، فتطأ بعض الشيوخ والأطفال والنساء، مما اضطر المعتصم أن يبني لهم مدينة سامراء شمالي بغداد».

ويعتبر هذا من أهم التحولات الخطيرة في تاريخ الدولة العباسية. فقد اعتمدت في البداية على الفرس وكانوا «أصحاب مدنية وحضارة فبثوهما في الحياة العربية وأعدوا لنهضة حضارية واسعة تستقي منهم ومن موارد الإسلام والعروبة ومن الثقافات الأجنبية كاليونانية والفارسية». أما الترك فقد كانوا بدواً لا يعرفون عملاً، ولا يتقنون فناً، ولا يحسنون سياسة. وقال الجاحظ عنهم: «الترك أصحاب عَمَد ـ خيام ـ وسكان فيافٍ، وأرباب مواشٍ وهم أعراب العجم . . فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة، ولا غرسٌ ولا بنيان ولا شقّ أنهار ولا جباية غلات ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل، ومقارعة الأبطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان. وكانت هممهم إلى ذلك مصروفة، وكانت لهذه المعاني والأسباب مسخرة ومقصورة عليها وموصولة بها، أحكموا ذلك الأمر بأسره وأتوا على آخره، وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذَّتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم، فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة وأهل الصين في الصناعات، وكآل ساسان في الملك والرياسة».

وبهذا فتح المعتصم الباب على مصراعيه لتحكم العنصر التركي في الإدارة والسياسة، وعين كبيرهم ـ أشناس ـ على مصر، وجعل له الحق في أن يولي عليها ولاة من قِبَله. وكان «يدعى له فيها على المنابر».

وخلف المعتصم ابنه «الواثق». الذي اعتمد كأبيه على العنصر التركي، وزاد في ذلك حتى أنه ولى ـ أشناس ـ من بابه في بغداد إلى آخر أعمال المغرب، واستخلفه على السلطنة وألبسه وشاحين بجوهر. وولى على الجانب الشرقي للدولة من كور دجلة حتى خراسان والسند ـ إيتاخ ـ. ولم يتخذ الواثق خليفة من بعده. وحين توفي سنة ٢٣٢ هـ. استغل قواد الترك هذا الفراغ، واتفق إيتاخ ووصيف وبُغا الكبير وحملوا رجال الدولة على البيعة للمتوكل. وحاول المتوكل أن يتخلص من نفوذ الأتراك، والتقرب من العرب. لكنهم قتلوه مع وزيره الفتح بن خاقان وفي ذلك يقول ابن القفطي: «استولى الأتراك بعد قتل المتوكل على المملكة، واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في يدهم كالأسير، إن شاءوا أبقوه، وإن شاءوا خلعوه، وإن شاءوا قتلوه».

واعتلى المنتصر عرش الخلافة، فخلع أخويه المعتز والمؤيد عن ولاية العهد وتوفي بعد ستة أشهر من خلافته. وجاء بعده المستعين في وقت أصبحت الدولة ألعوبة بيد قواد الترك: أمثال ـ أوتامش، وشاهك بالاضافة إلى أم المستعين.

وبعد فترة خُلِع المستعين، وجاء المعتز بالله الذي حاول أن يتخلص من الأتراك ونفوذهم وفتك بوصيف وبُغا الشرابي الصغير قاتل أبيه. يقول المسعودي: «ولما رأى الأتراك إقدام المعتز على قتل رؤسائهم وإعماله الحيلة في إفنائهم، وأنه قد اصطنع المقاربة والفراغنة صاروا إليه بأجمعهم لأربع بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، وجعلوا يقرعونه بذنوبه ويوبخونه على أفعاله وطالبوه بالأموال ـ رواتبهم ـ وكان المدبر لذلك صالح بن وصيف مع قواد الأتراك». وبعدها خلعوا المعتز، وبايعوا المهتدي، وسجنوا المعتز ثم قتلوه.

وحاول المهتدي أن يكون أميناً ووفياً. وأن يسير سيرة الحكام العادلين ويرفع الظلم عن الرعية، وقد قرب إليه العلماء والفقهاء. وحرّم الشراب ونهى عن القيان. إلاّ أن هذه السياسة لم تعجب الأتراك، فقتلوه وولوا مكانه المعتمد. وبعده كان أخوه الموفق الذي استطاع أن يقضي على ثورة الزنج ويرد للخلافة العباسية شيئاً من هيبتها. وفي أيام المعتضد. استكان الترك، وظلوا كذلك حتى ولاية المكتفي الذي وقع بخطأ فاحش إذ ارتضى أخاه المقتدر وهو صبي ولياً للعهد من بعده. وعندما تولى المقتدر الخلافة كان في الثالثة عشرة من عمره، فخلعه الأتراك وعينوا مكانه عبد الله بن المعتز الذي لقب بالمنتصف. ودام حكمه يوماً وليلة بعدها قتله الترك. وعادت الخلافة إلى المقتدر. وعاد الترك إلى نفوذهم القديم. ويسخط

مؤنس كبير الترك على المقتدر، فيخلعه ويخلف مكانه القاهر بالله. الذي «كان شجاعاً غير أنه كان أحمق أهوج شديد الإقدام على سفك الدماء، وكان لا يكاد يصحو من سكره، ومع ذلك حرم على الناس الخمر والسماع، واستطاع القضاء على مؤنس ونفر من القواد، ففسد ما بينه وبين الترك وسرعان ما خلعوه سنة ٣٢٢ هـ، وسملوا عينيه وبايعوا الرضي بالله». وفي عهد هذا الخليفة تغلب الترك على كل مجالات الدولة، ولم يعد للخليفة إلا الاسم. وفي أيام أخيه المتقي بالله حدثت حروب كثيرة أرهقت الدولة. وجاء بعده المستكفي بالله الذي قتل على يد معز الدولة البويهي. ويبدأ عصر جديد بدخول البويهيين الفرس بغداد وزوال سلطة الترك وقوادهم.

ـ تدهور الخلافة:

ظلت الخلافة العباسية ألعوبة بيد قواد الترك وأنصارهم، فترة طويلة من الزمن وصور ذلك بعض الشعراء لعهد الخليفة المستعين:

خليفةٌ في قفصٍ
بين وصيف وبُغا
يقول ما قالا له
كما يقول الببَّغا

وقد صور المعتمد نفسه وهو بالخلافة بقوله:

ألـيس مـن الـعجـائـب أنّ مثـلي
يـرى مـا قـلَّ مـمـتـنـعـاً عـلـيـه
وتُؤخَـذُ بـاسمـهـا الـدنيـا جميعـاً
ومـا مـن ذاك شـيء فـي يـديـه

وفي أيام المعتضد بالله لم يرتفع صوت للأتراك فقد «كان شجاعاً مهيباً أسمر نحيفاً، معتدل الخلق، ظاهر الجبروت، وافر العقل، شديد الوطأة من أفراد رجالات بني العباس وشجعانهم. كان يتقدم إلى الأسد وحده» وهو «آخر خليفة عقد ناموس الخلافة ثم أخذ أمر الخلفاء بعده في إدبار». حتى أصبحت الخلافة من بعده ألعوبة في يد الترك وقوادهم.

ومن أهم أسباب تدهور الخلافة العباسية:

١ ـ انغماس أكثر الخلفاء في اللهو والترف:

فالمتوكل الذي بنى قصوراً عديدة، وأنفق عليها الأموال الطائلة. ويروى أنه سأل شخصاً حين أتم بناء قصره الجعفري: كيف قولك في دارنا هذه؟ فأجابه بقوله: «إن الناس بنوا الدور في الدنيا وأنت بنيت الدنيا في دارك». وكثرت الجواري والقيان في قصور بني العباس. إذ كان الخليفة يفكر بنفسه وبملذاته، حتى غدا بعيداً عن الرعية التي عانت من الضرائب، وعاشت في شقاء، تنتظر أول فرصة للانقضاض على الدولة.

٢ ـ الرشوة:

في هذا الجو الفاسد، الذي كثر من الجواري والقيان، والخصيان. استفحلت الرشوة بين الوزراء والولاة وكبار الكتاب. حتى انهم كانوا يختلسون أموال الخراج والضرائب. وتفشّى الفساد، وانتشر الربا. وزادت القسوة على الناس. حتى اننا لم نعد بإزاء دولة تحكم بقوانين الشريعة الإسلامية. وإنما أصبحنا في غابة من اللصوص وقطاع الطرق. ويصور أحد الشعراء الحياة البائسة، والرشوة عند وزراء المقتدر:

وزيرٌ لا يملُّ من الرَّقاعَهْ
يولّي ثم يعزل بعد ساعهْ
إذا أهلُ الرُّشا صاروا إليه
فأحظى القوم أوفرهم بضاعهْ

٣ ـ غلبة النساء على الحكم:

في هذا الجو الفاسد حيث اللهو والرشوة، والانحطاط في كل المستويات استطاعت بعض النساء أن تتدخل في شؤون الحكم، وكن كثيراً ما يصرفنه بحسب أهوائهن. وكنّ يقتنين الجواهر والضياع والأموال الطائلة. حتى يقال: «إن المستعين مات وفي خزائن الدولة نحو نصف مليون دينار، على حين كان في خزائن أمه مليون دينار كاملة». وكانت أم المعتز أكثر منها جشعاً، ويقال: «إن قواد الترك طلبوا من ابنها قبل قتله

خمسين ألف دينار، فلم يجدها في خزائن الدولة، ففزع إليها يطلب منها أن تقرضه هذا المبلغ، حتى يفدي نفسه به من القتل فأنكرت أن يكون عندها مال، وخلع ابنها وقتل بعد أيام. وصادر أموالها حاجبه صالح بن وصيف. وملأه العجب حين وجد في خزانة لها مليوناً من الدنانير، غير جواهر قدرت بمليوني دينار. ولما رأى وصيف ذلك قال: «قبحها الله، عرضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار يدفعها رواتب للجيش، وعندها هذا كله في خزانة واحدة من خزائنها». أما شغب أم المقتدر فقد كانت على جانب عظيم من الثراء «وكانت تستعين بقهرمانتها - ثمل - وأقعدتها في الرصافة كل يوم جمعة للنظر في المظالم، فكانت تكتب بأحكامها على رقاع الناس بحضرة الفقهاء والقضاة».

٤ - قيام إمارات مستقلة:

هيأ الفساد المتفشي في الدولة العباسية، إلى قيام دويلات مستقلة وأهم هذه الدويلات

١ - الدولة الظاهرية.
٢ - الإمارة الصفارية.
٣ - الدولة الطولونية.
٤ - الدولة الاخشيدية.
٥ - الدولة الفاطمية.

٦ ـ إمارة السامانيين.
٧ ـ إمارة بني بويه.
٨ ـ إمارة بني حمدان.
٩ ـ دولة القرامطة.

٥ ـ الثورات:

١ ـ ثورة الزنج: (٢٥٥ هـ ـ ٢٧٠ هـ).

وهي من أخطر الثورات التي قامت في العصر العباسي. قادها رجل من ورزنين «قرية من قرى الري بإيران».

واستعان بالعبيد والزنج الذين كانوا يعملون في أراضي كبار القادة والملاك، لقاء أجر زهيد لا يكفيهم قوت يومهم. وصبغ على ثورته صبغة دينية فزعم: «أنه يوحى إليه وأن العناية الإلهية بعثته واختارته لإنقاذ الزنج من جور الملاك الظالمين».

وأشاع أن نسبه يعود إلى علي بن أبي طالب. وهذا نسب كاذب. لأنه عامل العلويين معاملة العبيد والجواري، ويقول المسعودي في هذا: «كان ينادي في عسكره على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس بن عبد المطلب وغيرهم من ولد هاشم وقريش ومن سائر العرب وأبناء الناس، فتباع الجارية بالدرهمين والثلاثة وينادي عليها بنسبها: هذه ابنة فلان، ولكل زنجي منهن العشرة والعشرون والثلاثون..

واستغاثت به امرأة هاشمية من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب كانت عند بعض الزنج، وسألته أن ينقلها إلى غيره من الزنج أو يعتقها ممّا هي فيه فقال لها: هو مولاك وأولى بك من غيره».

والتفّ حول هذا الداعي كثير من الناس، وكثرت إغاراته على البصرة وغيرها من المدن المهمة مثل عبادان والأهواز. ويصف المسعودي نكبة البصرة على يد هذا الداعية الدجال: «واختفى الناس ذعراً في الدور والآبار، وكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها، وكذلك الفئران والسنانير، وأفنوها حتى لم يقدروا منها على شيء، وكانوا إذا مات منهم الواحد أكلوه، وعدموا مع ذلك الماء العذب». واستطاع الموفق أن ينهي هذه الثورة ويقضي عليها سنة ٢٧٠ هـ.

٢ ـ ثورة القرامطة:

وضع مبادىء هذه الحركة عبد الله بن ميمون القداح، وهو فارسي له معرفة واسعة بجميع المذاهب الدينية والأديان السماوية. بدأ بالدعوة لحركته بالأهواز ومنها انطلق مع رفيقه الحسين الأهوازي إلى البصرة. ومنها استقر في ـ السَلَمْية ـ بالقرب من اللاذقية في الشام. ومنها أرسل الحسين الأهوازي إلى الكوفة ليدعو إلى الجمعية. وهناك التقى بحمدان قرمط،

الذي أصبح فيما بعد زعيم الحركة بعد موت الأهوازي. والتف حول هذه الحركة جمع وفير من الفلاحين في سواد الكوفة والبصرة. ووصلت دعوتهم إلى اليمن، والبوادي ونواحي دمشق. والبحرين والأحساء. وقد استطاعت هذه الحركة أن تبث الرعب والخوف في الدولة العباسية، حتى انهم هاجموا الحجاج في مكة سنة ٣١٧ هـ، وفي هذا التاريخ «حدثت الطامة الكبرى إذ وافى أبو طاهر الحاجَّ يوم التَّروِية، وهم يهلُّون، ويلبُّون، وقتل الحجاج قتلاً ذريعاً في فِجاج مكة وداخل البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره، ويقال إنه قتل منهم نحو عشرة آلاف، طُرح كثير منهم في بئر زمزم، وعَرَّى البيت من كسوته وقلع بابه واقتلع الحجر الأسود وأخذه معه إلى ـ هجر ـ. ونهب جميع التحف التي زيَّن بها الخلفاء الكعبة على مرِّ الأزمنة.. ويقال إنه كان يجلس على باب الكعبة والحجيج يُصْرَعون حوله في المسجد الحرام، وهو ينشد مثل قوله:

أنـــا لله وبـــالله أنـــا
يَـــخْـــلق الـــخـــلقَ وأُفـــنـــيـــهـــم أنـــا

ويقال: «إنه كان زنديقاً لا يصلي ولا يصوم ولا يؤدي فرائض الإسلام». ولم تنته هذه الدعوة إلاّ بعد دخول العراق حكم بني بويه. فضعف شأن القرامطة، واضطروا إلى الدخول في طاعة الخلافة العباسية ونبذ عقيدتهم.

ومن الأحداث الخطيرة التي عصفت بالدولة العباسية أيضاً.

١ - تدخل الخلفاء بشؤون الفقهاء. حتى ان الخليفة المتوكل كان قد أوقف في بداية حياته وخلافته القول بخلق القرآن الذي قاله به المعتزلة وأيده المأمون وحمل الفقهاء عليه. ونال الفقهاء من هذا العذاب الأليم خاصة أحمد بن حنبل وغيره ممن رفضوا اعتناق هذا القول.

٢ - هدم قبر الحسين بن علي في كربلاء بأمر من المتوكل. ممّا أثار حفيظة آل أبي طالب وشيعتهم. ويقول المسعودي: «إنه حين انتهى الفَعلة إلى الحفرة وموضع اللحد لم يروا فيه أثر جثة ولا غيرها». ويقول الطبري: «نودي في الناس: من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى السجون، فامتنع الناس من المصير إليه».

٣ - هجمات الروم البيزنطيين:

بقيت غزوات الروم البيزنطيين على الديار الإسلامية قائمة طيلة فترة حكم المتوكل. واستطاعوا أن ينزلوا دمياط سنة ٢٣٩ وينهبوا منها الكثير «ثم يفرون إلى البحر المتوسط وما وراءه». كما أنهم أغاروا على شمالي الشام والموصل وغيرها من البلدان.

٤ ـ ثورة يحيى بن عمر الطالبي :

حدثت هذه الثورة في عهد المستعين بالله. فقد خرج بالكوفة سنة ٢٤٨ هـ يحيى بن عمر الطالبي حفيد زيد بن علي زين العابدين. ولكن المستعين استطاع أن يقضي على هذه الثورة. ويقتل يحيى ـ ويحمل رأسه إلى بغداد. ويبكيه كثير من الشعراء «لورعه وتقواه».

٥ ـ خروج الحسن بن زيد:

وفي سنة ٢٥٠ خرج الحسن بن زيد، وهو من حفدة زيد بن علي زين العابدين في طبرستان «ويغلب عليها وعلى بلاد الديلم جميعها». وخلفه بعد موته أخوه محمد. ويخرج على المستعين «علويون مختلفون بالري وقزوين والكوفة ويقضى عليهم جميعاً».

وهناك ثورات عديدة أخرى قامت في العصر العباسي. ممّا جعلت الدولة تتآكل من الداخل، أضف إلى هذه ضعف الخلفاء أو بعضهم، وسيطرة العناصر الأجنبية على الحكم، وتحكم الفساد والرشوة، كل هذه الأسباب وغيرها جعلت العصر العباسي مسرحاً للنشاط السياسي والديني المتعدد الألوان والأشكال.

ب ـ الحياة الاجتماعية

١ ـ طبقات المجتمع :

ساد العصر العباسي ثلاث طبقات أساسية :

١ ـ طبقة عليا: وهي طبقة الحكام والخلفاء والوزراء وكبار الأمراء والقادة والتجار والأعيان وأصحاب الإقطاع .

٢ ـ طبقة وسطى: وتتألف من رجال الجيش، وموظفي الدواوين والتجار والصناع الممتازين .

٣ ـ طبقة دنيا: وهي عامة الشعب، من زراع وحرفيين، وخدم ورقيق .

كانت الطبقة الأولى تعيش في ترف ونعيم، وبذخ وإسراف . وعلى رأس المبذرين والمسرفين كان يقف الخلفاء أنفسهم . وكانوا يصرفون أموال الدولة بأمور لا تهمّ الرعية، ولا ترفع من مستواها الثقافي أو الاجتماعي . وكان الإسراف في الإنفاق على بناء القصور، وعلى الخدم والجواري والحرس وأصحاب الأخبار والمنجمين والمضحكين وغيرهم . ويقول الصابي : «إنّ نفقة ذلك كله وما يجري مجراه مما يلزم الدار

كان يبلغ أكثر من مليونين وخمسمائة ألف دينار سنوياً». ويقال إنه كان في الدار لأيام المكتفي عشرون ألفاً من الغلمان وعشرة آلاف خادم. وتتجلى صورة البذخ الجنونية أيام المتوكل ويقال: «إن النفقات لم تبلغ في عصر من عصور الخلفاء ما بلغته في عصره، وخاصة في بناء القصور، وقد أحدث فيها البناء الموسوم باسم البناء الحيري، وكان يُجْعَلْ فيه دون القصر ثلاثة أبواب عظام، وكان في الرواق مجلس الخليفة وأمامه بيتان بهما خواصه. وعلى اليمين خزانة الكسوة وعلى اليسار ما يحتاج إليه من الشراب. وكان كلما بنى قصراً أتبعه بآخر، حتى بلغت قصوره نحو العشرين».

وكان الوزراء يعيشون في النعيم أيضاً لما يأخذونه من رواتب ضخمة وإقطاعات وما كانوا يختلسونه لأنفسهم من الناس ومن أموال الدولة. وكانت هالة الوزير شبيهة إلى حد ما بهالة الخليفة. فقد وضع لنفسه الحرس والخدم، وجلس في ديوان خاص، يستقبل الكتاب وغيرهم فيه. وعكس هذا الترف الذي يعيشه الوزراء نفسه على القواد الذين يعتبرون من أنصار الخليفة وحماته. فأقطعهم إقطاعات كثيرة وواسعة مثلما اقتطع للوزراء. وكان للقواد حجابٌ ومماليك وخدم.

وكان أبناء البيت العباسي يتقاضون من الدولة رواتب، ومثلهم كان العلويون والهاشميون.

إن هذه الطبقة الغارقة في البذخ والتبذير، أنشأت جيلاً

من أبنائها غارقاً بالملذات، والدعة والنعيم لا يعتمد على نفسه، بل بما يستخلصه من الناس عن طريق الهدايا والخوات وغير ذلك.

وتضم الطبقة الثانية وهي الطبقة الوسطى في المجتمع العباسي، علماء العربية والفقه والتفسير والحديث. وكان لهؤلاء رواتب ثابتة من الدولة. ومنهم مصلحون يهتمون بأمور الناشئة، من مختلف الطبقات إلاّ أن الأهمية تبقى لمن يعلم: أبناء الخلفاء والقواد، ويدخل في نطاق هذه الطبقة أيضاً الصناع والتجار.

وبعد هذه تأتي طبقة العامة من الرعية. وهي التي كان يقع عليها عبء العمل كله في الزراعة وفي الصناعات الصغيرة وفي خدمة أرباب القصور. وهذه الطبقة هي التي تقدم الحياة الهادئة والمرفهة للطبقتين الوسطى والعليا. وكانت هذه الطبقة تعمل في كل المهن الحقيرة. وأصبح الاختصاص في العمل من الأشياء الضرورية في هذا العصر. لكن الفقر الذي أصاب الناس في هذه الطبقة دفع الكثير منهم إلى أعمال سيئة كالقرادة، والعمل في الملاهي الصغيرة. كما نشأ فيها كثير من المهرجين، وخرجت إلى المجتمع نخبة من اللصوص الذين عاثوا في الأرض فساداً.

وإلى جانب هذه الطبقات. كان أهل الذمة من نصارى، ويهود ومجوس وصابئة. وقد توصل كثير من هؤلاء إلى مراكز

مهمة في الدولة خاصــةً في أواخر القرن الثالث الهجري. إذ يكثر استخدامهم في الكتـابة وفي أمـور المسلمين. فيأمـر المقتدر لسنة ٢٩٦ هـ «بألا يستخدم أحد منهم إلاّ في الطلب والجهبذة وأن يطالبوا بلبس العسلي وتعليق الرقاع المصبوغة على أظهرهم». ومـع ذلك نرى وزيره ابن الفرات يتخذ منهم «أربعة كتاب كان يدعوهم يومياً إلى طعامه مع خمسة آخرين اختص بهم جميعاً».

٢ ـ اللـهو والتـرف:

لقد تفنن الخلفاء والوزراء ببناء القصور. حتى غدت بكثرتها مدناً، فيها ما لذّ وطاب من وسائل الترف، وأسباب المتعة، والعيش المنعم. وقد كلّفت هذه القصور الملايين الطائلة من أموال الدولة. أما الحفلات التي كانت تجري في تلك القصور كانت أشبه بأساطير لم يحلم بها الإنسان. إذ أن حفلة ختان المعتز بن المتوكل كانت أشبه بحلم أسطوري لما فيها من بذخ ولهو حتى ان الدنانير كانت تنثر على الجواري والقيان وخدم القصر والحاشية. وإن هذه الحفلات المجنونة كانت قد أمدت القصص في كتاب ألف ليلة وليلة بمادة مهمة عن البذخ والترف. وأصبحت القصـور مقاصف يـدور فيها الكأس والطاس وكان علىَ رأس الشاربين العابثين الخلفاء أنفسهم. وكـان الخلفاء ينعمـون بالحيـاة إلى حد الهـوس والطيش، والسفه والجنون، ويقال إن المتوكل: «حين انتهى

من بناء قصره الجعفري استدعى أصحاب الملاهي، فقدموا له بعض المساخر والملاعب المضحكة». ويقول المسعودي: «إن النفقات لم تبلغ في وقت من الأوقات ما بلغته في أيام المتوكل» وكان أكثر أبنائه على غراره من مثل المعتز «وكان يكثر من عقد مجالس الشراب في قصوره، وهو أول من ركب من الخلفاء بحلية من ذهب». وكان البذخ واللهو في كل مستويات الحياة لدى أرباب القصور، ونراه في المسكن والملبس والمأكل. فكانت الستور الجميلة تعلق دائماً على جدران المسكن، وكانت تفرش أرض غرفه وممراته وصحونه بالبسط والسجاجيد. ويقال: «إن المتوكل حين غضب على عمر بن فرج الرُّخَجِيّ أحد كبار موظفي الدولة، وصادر أمواله حملت فُرُش وأمتعة من داره على خمسين بعيراً». وكانت النساء في تلك القصور تعيش في ترف ونعيم. وكنّ يبالغن في زينتهن وأناقتهن، فكن يلبسن ثياب السندس والاستبرق وكن يتحلين بالجواهر الثمينة والنادرة. ويروى: «أنه كان لدى قبيحة أم المعتز ثلاثة أسفاط: سَفَطٌ مملوء زمرداً، وسفطٌ مملوء ياقوتاً، وسفط مملوء دُراً كبيراً. وقومت الأسفاط فبلغت قيمتها مليونين من الدنانير». ويقول الجاحظ: «إن المرأة من الطبقة الوسطى حين كانت تهيىء ابنتها للزواج كانت تحليها بالذهب والفضة وتكسوها الثياب الحريرية وتغمرها بالطيب العَبِق».

وتفننوا في المأكل والمشرب. إذ كان «في بيوت الكبراء

شرابي يعني بالشراب وآلته، وبالفاكهة والروائح». وكانوا يفصلون وقت الشراب عن وقت الطعام، وفيه يكون السمرة ودائماً نجد الندماء. وكان لكل خليفة ندماؤه من العلماء والمنجمين والأطباء ومن يروون النوادر والفكاهات. وكان المعتمد كثير الندماء، وفي ذلك يقول المسعودي: «وللمعتمد مجالسات ومذاكرات ومجالس في أنواع من الأدب، منها مدح النديم وذكر فضائله». واشتهرت في أيامه لعبة الشطرنج ولعبة النرد وغيرهما من ألاعيب التسلية. أما تسلية العامة فكانت عند قُصَّاص كانوا منتشرين في طرقات بغداد.

٣ ـ الرقيق والجواري:

والرقيق في العصر العباسي كان منتشراً في كل مكان في القصور والأكواخ. ومنه السندي، والإفريقي، والزنجي والحبشي والسوداني والتركي والصقلبي، والصيني والخراساني والأرمني والبربري. وازدهرت أسواق الرقيق في هذا العصر، وكان على كل سوق مسؤول يسمى ـ قَيِّم الرقيق ـ ويذكر اليعقوبي: «أن سوق سامراء في القرن الثالث الهجري كانت مربعة، وبها طرق متشعبة، وفيها الخمر والغرف والحوانيت». مع العلم أن الإسلام عمل على تحرير الرقيق. واستطاع كثير من الأرقاء المحررين أن يصلوا إلى مراكز عالية في الدولة. إلّا ان أكثرية الرقيق كانت تعامل معاملة سيئة وخاصة الزنوج.

إلى جانب الأرقاء كان الخصيان بأعدادهم الكبيرة.

وكانت الإماء والجواري في الدور والقصور، وكن من جنسيات مختلفة منها الفارسية والأرمنية والتركية والرومية. ويقال: «إن المتوكل عندما أفضت إليه الخلافة أهداه عبيد الله بن طاهر هدية فيها مائتا وصيف ووصيفة وكان في الهدية محبوبة، وكانت شاعرة مغنية، فوقعت عنده أعظم موقع واقترن بها». وقد ارتاد كثير من الشعراء دور النخاسين لرؤية جارية من الجواري. وازدهر الغناء والموسيقى في هذا العصر ازدهاراً لم نر له مثيلاً في العصور السابقة. وألفت ترجمات كثيرة في هذا الفن، ووضعت الكتب له حتى تطور وأصبح من الفنون اللازمة لحياة العصر العباسي.

٤ ـ المجون والشعوبية والزندقة:

ساد المجون العصر العباسي، وظل الناس يمعنون في شرب الخمر واحتسائها دون رادع من دين، أو وازع من ضمير. ومعروف أن الإسلام حرّم ذلك. إلا أن بعض فقهاء العراق الأحناف حللوا بعض المشروبات غير المسكرة كنبيذ التمر والعسل والتين. وشرب الناس من هذا، وشرب الخلفاء وتجاوزوا حتى شربوا المسكر منها وفي ذلك يقول ابن الرومي:

أباح العراقيُّ النبيذ وشُرْبَهُ
وقال حرامان: المدامةُ والسُّكْرُ

وقال الحجازي: الشرابان واحدٌ
فحلٌ لنا من بين قوليهما الخَمْرُ
سآخذ من قوليهما طرفيهما
وأشربها لا فارق الوازرَ الوِزْرُ

وكان المتوكل «يعقد في قصوره مجالس كثيرة للمنادمة والشراب، وكان يحب الشرب ومن حوله الورد والرياحين». وكان ابنه المعتز «يزور الأديرة للشراب. وكان يشرب في قصوره بين ندمائه والمغنون يغنون بين يديه، كما كان يشرب في البساتين». ويقول المسعودي عن المعتمد بأنه: «كان مشغوفاً بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو الملاهي». وكان معظم خلفاء بني العباس يحتسون الخمر ولا يرتدعون. وأصبحت قصورهم مقاصف للهو، والشراب والغناء. وكذلك كانت قصور الأمراء والوزراء وكبار أصحاب الدولة. وتورط في هذا بعض القضاة، وبعض علماء اللغة أمثال ابن دريد، الذي يقول فيه أبو حفص بن شاهين: «كنا ندخل عليه فنستحي مما نرى من العيدان المعلقة والشراب وقد جاوز التسعين». ووقع فيها الشعراء وأوغلوا فيها إيغالاً. وأقيمت في هذا العصر الحانات التي كانت تعج بالقيان المغنيات، والجواري الأديبات. ويقول الجاحظ في وصف هذا: «من تمام آلة الخمار أن يكون ذمياً وأن يكون اسمه آذين أو مازياً أو ميثاً أو شلوماً، ويكون أرقط الثياب مختوم العنق».

ويصف الجاحظ أيضاً القيان بقوله: «كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة. وإنما تُكْتَسَبُ الأهواء، وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ، وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث. . وبين الخلعاء والمجان من لا يُسمع من كلمة جِدّ، ولا يُرْجَعُ منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة. وتروي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت (أغنية) فصاعداً يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، وعدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت، ليس فيها ذكر الله إلاّ عن غفلة، ولا ترهيب من عقاب، ولا ترغيب في ثواب، وإنما بنيت كلها على ذكر. . القيادة والعشق والصبوة والشوق والغُلْمَة. ثم لا تنفك من الدراسة لصنعتها منكبة عليها تأخذها من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش وإنشادهم مُراودة».

وأصبحت الأديرة دوراً للعبث والمجون، وكانت تقدم لروادها الخمور المعتقة. وكانت منتشرة في ضواحي بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق. وكانت الأعياد الكثيرة مناسبات ليخرج الناس والشعراء للشرب واللهو، حتى عمّ الشعر المفرط في إباحيته، والذي يخجل منه الإنسان العاقل.

وفي هذا الجو العابق بالانحطاط الخلقي، ازدادت حدة الشعوبية. ومضى كثيرون يمجدون ويشيدون بفضائل الشعوب

القديمة وحاضرتها ومدنيتها، وفي مقدمتها الفرس بسياساتهم وآدابهم والروم بعلومهم وفلسفاتهم والهند بسحرها ومعارفها الرياضية وغير الرياضية. ومن هؤلاء الشعوبيين المتوكل الشاعر المنسوب إلى الخليفة المتوكل لأنه كان من ندمائه. إذ يقول في شعوبية حمقاء:

أنـا ابـن الأكـارم مـن نَـسْـل جَـمّ
وحـائـزُ إرثِ مـلوكِ الـعـجـمْ
وطـالـبُ أوتـارهـم جَـهْـرَةً
فـمـنْ نـامَ عـن حـقـهـم لـم أنـمْ
فـقـلْ لـبـني هـاشـم أجـمـعـين
هـلـمـوا إلى الـخلع قـبـل الـنـدمْ
وعـودوا إلـى أرضـكـم بـالـحـجـاز
لأكـل الـضِّـبـابِ ورعـي الـغـنـمْ
فـإني سـأعـلو سـريـرَ الـملوكِ
بـحـدِّ الـحـسـام وحـرْف الـقـلم

وواضح أن الشعوبية هي العداء لكل ما هو عربي. وقد تصدى الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما للرد على تلك الفئة الحاقدة العمياء، التي جمعت بين طياتها زنادقة الأمم الذين يكرهون كل ما هو عربي، وكل من ينتسب إلى الإسلام. ويوضح الجاحظ ذلك بقوله: «إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول

ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدال المؤدي إلى الضلال، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبَّ من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذا كانت العرب هي التي جاءت به، وهي السلف والقدوة». واشتدت حركة الإلحاد حتى بدأ التشكيك بالنبوة وبالديانات عامة.

٥ ـ الزهد والتصوف:

نستطيع أن نطلق على العصر العباسي صفة الجامع للمتناقضات. وهذا شيء طبيعي نتيجة الانحلال الخلقي عند الخلفاء والوزراء والقواد وغيرهم. ولا يعني هذا أن فترات الانحلال سادت ولم يبق للخير مكان. فالمساجد بقيت محافظة على روح الإسلام. وكانت الحلقات فيها، والوعاظ الذين ما انفكوا يذكرون الناس بالله واليوم الآخر، وأنهم سيلاقون يوم الحساب فإما إلى الجنة والنعيم وإما إلى النار والجحيم. وكانت ردة الفعل على العبث واللهو إن نشأت حركة الزهد والتصوف. إذ كثر النساك والزهاد وابتعدوا عن الحياة الدنيا ومتعها الكثيرة، وعاشوا عيشة تقشف وعبادة. ونرى في كتب التراجم أسماء كثيرة لنساك وزهاد منهم إبراهيم بن إسحق الحربي، وكان من كبار المحدثين. زهد،

وعاش حياة بعيدة عن الترف. وكان لا يتقاضى أجراً عن محاضراته التي كان يلقيها على الناس. حتى انه كان يرفض أي مال يأتيه من خليفة أو صاحب سلطان وجاه. ويروى «أن المعتضد أرسل إليه بعشرة آلاف درهم مع بعض اتباعه، فردها، وعاد الرسول يقول له: إن المعتضد يسألك أن تفرقها في جيرانك، فقال له: عافاك الله هذا ما لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقته، قل لأمير المؤمنين إن تركتنا أقمنا، وإلاّ تحولنا عن جوارك».

وكثر دعاة التصوف، وفلاسفته. حتى غدا من أهم الظواهر الإجتماعية التي برزت في العصر العباسي. وهذا ما أولاه عناية خاصة دارسو الأدب حديثاً، والمستشرقون من قبلهم.

ج ـ الحيـاة العقليـة

الحركـة الأدبيـة:

اتسعت رقعة الأدب في العصر العباسي، حتى غدا من أهم العصور الأدبية في تاريخنا العربي والإسلامي. وليس غريباً أن نجد هذا التطور، لأن العرب الذين خرجوا من باديتهم متعطشين للعلم الذي بشر به وحث عليه الدين الإسلامي. والذي ساعدهم في ذلك أن الشعوب المسلمة أخذت العربية لأنها لغة القرآن، وترجمت تراثها إلى العربية ممّا ساعد على خلق بيئة أدبية تعنى بكل علم معروف لدى الأمم القديمـة كالفارسية، والهندية، واليونانية.

ونشط التعليم للناشئة في الكتاتيب والمساجد، وأخذ هؤلاء الخط والكتـابة والقـراءة، وحفظ القـرآن، والأشعـار والأمثال، والحساب والسنن والفرائض والنحو والعـروض. وكانت حياة معلم الكتاتيب بائسة، وإلى هذا يشير الجاحظ بقوله: «يكون الرجل نحوياً عروضياً وقساماً فرضياً، وحسن الكتاب جيد الحساب حافظاً للقرآن راوية للشعر وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهماً، ولو أن رجلاً كان حسن البيان حسن

التخريج للمعاني ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم». وهذه حال معلم أبناء الطبقة الوسطى أيضاً. أما من كانوا يعلمون أبناء الخلفاء والوزراء والأمراء والقواد وكبار رجال الدولة والأعيان وكبار التجار، فكانوا يحظون برواتب كبيرة.

وكانت حلقات الدراسة في المساجد. وكان الطلاب يختلفون إليها بدون شروط. ويأخذون الفقه أو الكلام أو الحديث النبوي أو التفسير أو اللغة أو النحو أو الشعر. وكان بعض المعلمين يتقاضى راتباً من تلاميذه أو من بعضهم. ففي أخبار الزجاج أنه رغب في تعلم النحو «فلزم حلقة المبرد بجامع بغداد لتعلمه، فسأله أي شيء صناعتك؟ فأجابه: أخرط الزجاج وكسبي في كل يوم درهم ونصف، وأريد أن تهتم بتعليمي وأنا أعطيك كل يوم درهماً، وسأظل أعطيك إياه أبد الدهر، فلزمه وعُني بتخريجه وطلبت منه أسرة، معلماً شاباً يعلم أولادهم النحو فسمَّاه لهم، وعلم أولادهم، وظل يعطي المبرد في كل شهر ثلاثين درهماً ويزيده بما قدر عليه». وكانت السلطة العباسية ترعى العلماء وتقدم لهم الأعطيات. حتى انها كانت تخصص للبعض منهم معاشاً وراتباً شهرياً.

وأولى الخلفاء العلم والعلماء رعاية خاصة. وكذلك فعل الوزراء وحكام الولايات. وفي مقدمتهم أسرة الصفاريين، إذ نرى أبا عبد الله البوشنجي شيخ أهل الحديث بنيسابور، يذكر: «أنه أخذ من تلك الأسرة سبعمائة ألف درهم ولما زالت

دولتهم تحول عنهم إلى السامانيين ببخارى، ففرضوا له راتباً مجزياً».

وكان الكثير من أعيان الأمة وأغنيائها يمدون الطلاب والعلماء بالمكافآت والأموال تشجيعاً وحثاً على طلب العلم. ويروى أن ابن زرعة قاضي دمشق «كان يهب لمن يحفظ مختصر المزني في الفقه الشافعي مائة دينار». حتى ان بعض العلماء كان قد أهدى مؤلفاته إلى الخلفاء. فالجاحظ أهدى كتابه ـ الحيوان ـ إلى محمد بن عبد الملك الزيات، فأعطاه خمسة آلاف دينار. وأهدى كتابه ـ البيان والتبيين ـ إلى أحمد بن أبي دؤاد، فأعطاه أيضاً خمسة آلاف دينار.

وانتشرت في هذا العصر دكاكين الوراقين، التي كان يختلف إليها الناس. وازدهرت الترجمة منذ بداية هذا العصر، وترجمت كتب الفلسفة، والطب والرياضيات وغيرها من العلوم التي كانت لدى الحضارات القديمة. وكان الشغف بتلقي العلم يشبه السباق بين العلماء والعلم. ويحدثنا كثير من الرواة عن كثيرين عشقوا الكتب وعشقوا العلم عشقاً كبيراً. يقول ابن هفان: «لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب أكثر من ثلاثة: الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلاّ استوفى قراءته كائناً ما كان حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر، والفتح بن خاقان فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكل، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كمه أو خُفِّه، وقرأه في

مجلس المتوكل إلى عَوْده إليه. وإسماعيل بن إسحٰق القاضي فإني ما دخلت إليه إلاّ رأيته ينظر في كتاب أو يقلب كتباً أو ينفضها». وهذا الشغف بالعلم، حمل العلماء إلى الرحلة، فكان اللغويون يرحلون إلى البوادي لأخذ اللغة من أبنائها الحقيقيين. وكان الفقهاء يرحلون إلى أئمة الفقه أينما وجدوا. وكان العلم للجميع ولم يقتصر على طبقة معينة، إذ أنه كان مطروحاً في المساجد ومباحاً للجميع. وكانت المكتبات لطالبي العلم وكذلك كانت دكاكين الوراقين. ولم يكن العلم مقتصراً على الرجال، بل تعداه إلى الإناث. إذ كانت قهرمانة لأم المقتدر ـ وهي ثَمَل ـ تجلس لسماع المظالم والحكم بين المتظالمين، ويجلس معها القضاة والعلماء. وقد أجاز الطبري ولاية المرأة للقضاء. وهذا يدل على ما بلغته المرأة من التعمق في الفقه وعلوم الشريعة.

وكانت أولى خطوات العلم هي التعرف على الحضارات القديمة. ومن هنا كانت الترجمة وكان النقل من علوم الهند وفارس واليونان. وكانت الدولة ذاتها راعية لهذه الظاهرة الفكرية الحضارية. فمنذ ولاية أبي جعفر المنصور كانت الترجمات تأخذ سبيلها لإغناء الفكر العربي والإسلامي. وقد أنشأ هارون الرشيد ـ دار الحكمة ـ وجلب إليها المترجمين من جنديسابور ومن السريان والفرس. وخلفه المأمون الذي شجع هذه الظاهرة، وألحق بدار الحكمة مرصداً، وأرسل

البعثات إلى بلاد الروم للاطلاع على نواحي الفكر المختلفة هناك. ومن أهم المترجمين آنذاك حنين بن إسحق. وثابت بن قرة. ومتى بن يونس. وقسطا بن لوقا البعلبكي. ونتيجة لهذا الاحتكاك الثقافي بالحضارات القديمة. ابتكر العرب المسلمون علوماً مختلفة منها:

١ ـ علم الجبر: ابتكره محمد بن موسى الخوارزمي.

٢ ـ علم الكيمياء: ابتكره جابر بن حيان.

٣ ـ نشطوا في علم الطب. وطبيب المسلمين الأول هو: أبو بكر محمد بن زكريا الرازي. الذي بدأ حياته بدراسة العلوم الرياضية ثم اشتغل بالكيمياء والطب.

٤ ـ الفلسفة العربية الإسلامية: وأهم رموزها، الكندي والفارابي.

وفي هذا الجو العابق بدأ الوضع لعلوم شتى تتصل باللغة العربية منها، والنحو والبلاغة، والنقد والتاريخ. وأهم المدارس التي قامت وعنيت بهذه العلوم هي:

١ ـ مدرسة البصرة: وإليها يرجع الفضل في إقامة صرح النحو العربي بكل ما يتصل به من قواعد. فمنذ أيام الخليل بن أحمد، الذي صاغ النحو في صورته العامة المعروفة بأبوابه وعوامله ومعمولاته وكل ما سند بناءه من سماع وتعليل وقياس قويم. وأتم سيبويه صنيعه في مصنفه ـ الكتاب ـ وجاء بعدهما ـ الأخفش الأوسط ـ وأكمل ما بدأ به معلمه الخليل.

٢ ـ مدرسة الكوفة: من رموزها ـ الكسائي والفراء وابو العباس ثعلب. الذي ألف وكتب مصنفات كثيرة في النحو واللغة والقراءات. ومن أهم كتبه ـ الفصيح ـ و ـ المجالس ـ.

٣ ـ المدرسة البغدادية ـ هي مدرسة متميزة بمنهجها القائم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية. ومن اعلامها: ابن كيسان. الزجاجي.

ونشطت علوم البلاغة في هذا العصر. وبدأ العلماء يضعون ملاحظاتهم على وجوه الحسن من الكلام. وألف الأصمعي كتاباً في التجنيس، وتكلم فيه عن الطباق والالتفات. وعني ـ أبو عبيدة ـ ببيان بعض الخصائص البلاغية مثل التقديم والتأخير والتشبيه والكناية والاستعارة في كتابه ـ مجاز القرآن ـ. وأخذ المتكلمون يعنون بالبحث في وجوه البلاغة مما أتاح لهم المجال في التعرف على ما عند الأمم الأجنبية منها وأضافوا إليها كثيراً من ملاحظاتهم. ومضى اللغويون والأدباء يحاولون التعرف على مواطن الجمال والبلاغة في الكلام. ونثر ابن قتيبة في كتابه «تأويل مشكل القرآن» ملاحظات متنوعة عن الخصائص البيانية والأسلوبية. وألم ـ المبرد ـ بالكناية والتشبيه. وأهم كتاب في هذا ما كتبه الجاحظ، وهو ـ البيان والتبيين ـ و ـ الحيوان ـ حيث تكلم فيه عن فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وتكلم عن الإيجاز والإطناب وعن أصوات الكلام، وموسيقى اللفظ، وعن

السجع والازدواج والاقتباس. وجاء بالاستعارة بأقسامها المختلفة وألم بالتشبيه وبكثير من فنون البديع.

ورافق تطور البلاغة، تطور للنقد الذي قوم فن القول عند كثير من الأدباء والشعراء. وأول من كتب في هذا الجاحظ وابن قتيبة. وقد تأثر بهما ابن طباطبا الذي نراه يشير إلى تماسك المعاني وارتباط أول الكلام بما يليه ويشدد في وحدة السياق، وأن تتواصل «أبيات القصيدة حتى تغدو بناء محكماً بل حتى تغدو كأنها جسد واحد لا يمكن وضع عضو فيه مكان عضو آخر».

وكانت عملية النقد ناشطة جداً، والملفت للنظر فيها أنها كانت محافظة. واستطاع أصحابها أن يسيطروا على الحركة النقدية، وفي مقدمة هؤلاء المتكلمون الذين أرسوا للنقد أصولاً ورسوماً واضحة. أبقت الشعر على تقاليده الموروثة.

وكثرت في هذا العصر الكتابات التاريخية، من سيرة نبوية إلى كتابة الأحداث الإسلامية، وتاريخ الأمم والدول، وكتابة في المدن والتراجم والطبقات.

وكذلك نشطت الكتابات في علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه.

الشعر

تطورت العلوم والفنون في العصر العباسي تطوراً ملحوظاً. وأسدى اللغويون للناشئة خدمة مهمة بجمعهم مادة اللغة، كما أنهم بسطوا قواعدها النحوية والصرفية والموسيقية. وجمعوا عيون الشعر العربي، وشرحوا بعضها. وترجموا للشعراء من العصر الجاهلي ومن العصور الإسلامية، كما فعل ابن قتيبة في ـ الشعر والشعراء ـ وابن سلام في ـ طبقات الشعراء ـ. كل هذا مكّن الناشئة من إتقان العربية والوقوف على كثير من أسرارها التركيبية والموسيقية. كما أنهم عرفوا قواعد البيان والبلاغة. حتى ان الشعراء كانوا يعرضون على النحاة أشعارهم. ويحدثنا أبو الشبل أحد الشعراء لعصر المتوكل إذ يقول: «لما عرض لي الشعر أتيت جاراً لي نحوياً هو المازني، وأنا يومئذٍ حديث السن، فقلت له إن رجلاً لم يكن من أهل الشعر ولا من أهل الرواية قد جاش صدره بشيء من الشعر، فكره أن يُظهره حتى تسمعه، قال: هاته، وكنت قد قلت شعراً ليس بجيد، إنما هو قول مبتدىء، فأنشدته إياه فلما سمعه نهرني عليه وذمه». وهذه المنزلة الرفيعة للنحاة، جعلتهم حماة العربية، وجعلتهم يتعقبون الشعراء في أساليبهم

ويقومون الخلل إذا حدث. ممّا جعلهم يفرضون احترامهم على الناس وفي هذا يقول إسحق بن خلف الطنبوري:

النحو يبسط من لسان الألكن
والمرء تُعظمه إذا لم يَلْحَنِ
وإذا طلبتَ من العلوم أجلّها
فأجلُّها عندي مقيمُ الألسنِ

ولقد تزود الشعراء بهذا الزاد الفني من النحو ومن العربية الفصحى، مكنهم من الوقوف على خصائص اللغة ودقائقها الأعرابية والصرفية. بحيث ابتعدوا في أساليبهم عن الشوائب التي كانت لدى العامة، والموجودة في العامية، وبقيت الفصحى لغة القول والشعر. وانتبه الشعراء إلى الثقافات الأجنبية الدخيلة. ومضى بعضهم للإطلاع على ما فيها من كنوز وذخائر. لكنه بقي ملتزماً بأصول العربية الموروثة في فن القول. وهذا الاطلاع مكّن الشاعر من التغلغل في حقائق المعاني، والنفوذ إلى أعماقها وأغوارها البعيدة. مع دقة في التحليل والاستنباط والتقسيم. ويروي ابن قتيبة أن بعض الشعراء أنشد الكندي الفيلسوف:

وفي أربعٍ مني حَلَتْ منكَ أربعٌ
فما أنا أدري أيها هاج لي كربي

أوجهكَ في عيني أم الطعم في فمي
أم النطقُ في سمعي أم الحب في قلبي

فقال له الكندي: «والله لقد قسمتها تقسيماً فلسفياً». ومن التقسيم الجميل قول ابن المعتز:

سقتني في ليلٍ شبيهٍ بشعرها
شبيهة خَدَّيها بغير رقيبِ
فأمسيتُ في ليلين بالشعر والدُّجى
وخمرين من راحٍ وخَدٍّ حبيبِ

ومن الوصف الجميل قول عليّ بن الجهم:

أما ترى شجرات الورد مظهرةً
لنا بدائع قد رُكِّبْنَ في قُضبِ
كأنهنَّ يواقيتٌ يُطيف بها
زَبَرْجَدٌ وسْطَها شذرٌ من الذَّهبِ

والصورة مأخوذة من قول أرديشير: «الورد ياقوتٌ أحمر وأصفر ودر أبيض على كراسي زبرجد يتوسطه شذور ذهب». وبدأ في هذا العصر التوليد والابتكار في صور جديدة.

وهذا التجديد في الأسلوب وابتكار الصور الجمالية، أدى إلى ابتكار موضوعات وأغراض جديدة. بعدما كانت الموضوعات القديمة وقفاً على المديح والهجاء والوصف

والرثاء والغزل، وغير ذلك من الموضوعات التي نعرفها. حتى المديح في هذا العصر اختلف عن العصور السالفة. وبدأ الغلو فيه إلى درجة الرفعة التي لا تدانيها رفعة. ووصفوا الأعياد الكثيرة والأزهار والورود والرياحين. حتى الهجاء تغير لونه في هذا العصر، وعُرف الهجاء الكاريكاتوري الممسوخ، وحمل في طياته معاني التحقير والتصغير والسخرية المريرة. وهذا ما نراه عند ابن الرومي كقوله في بعض مهجويه.

ما ظننت الإنسان يجترُّ حتى
كنتَ ذاك الإنسان عَيْنَ اليقينِ

إن المهجو هنا اتخذ شكل حيوان مجتر. وهذا شيء جديد في الشعر لم نجده في الشعر الجاهلي والإسلامي، وعرف الشعر العربي لأول مرة رثاء المدن بعد حرق مدينة بغداد اثر الحرب التي قامت بين الأمين والمأمون. ومن موضوعات الرثاء المستحدث في العصر العباسي رثاء المدلل من الحيوانات. وكثر في هذا العصر شعر العتاب والاعتذار. ولا نغالي إذا قلنا ان أهم موضوع استغرق الشعراء واستنفد أشعارهم هو الغزل. «وكانوا ينظمونه تعبيراً عن عاطفة الحب الإنسانية الخالدة وتلبية لحاجات الناس الوجدانية، وحاجات المغنين والمغنيات من المقطوعات والأشعار التي كانت توقع على الآلات والمعازف الموسيقية، ولذلك تطلبها دائماً دور القيان والطرب وكان الشعراء يختلفون إلى هذه الدور لسماع

الغناء في أشعارهم. ومن هذه الحياة الصاخبة نشأ شعر الخمرة. وكردة فعل على المجون وما يتصل به، كان شعر التصوف والزهد والابتعاد عن ملذات الدنيا، والعمل من أجل الآخرة.

وتطور الشعر التعليمي بشكل ملفت للنظر، ومن أبرع من استخدمه أبان بن عبد الحميد، فقد نظم فيه كليلة ودمنة في نحو أربعة عشر ألف بيت. ومن رواده علي بن الجهم وابن المعتز وابن دريد.

إننا أمام عصر تختلط فيه المتناقضات وتجتمع في بيئة واحدة، وتحت سقف واحد أمم كثيرة زودت العرب المسلمين بعلومها، وتألق العرب ووصلوا إلى ماهيّة تلك العلوم، وأضافوا إليها وابتكروا فيها. وكان الشعر ابن البيئة الاجتماعية والفكرية فنما، وتطور، وطرق أبواب أغراض جديدة، فأجاد فيها وعلا شأنه، لأنه صور الحياة بكل مجالاتها، فكان راصداً للظواهر، ناقداً للحركات، عاملاً في بناء صرح جديد للغة العربية وللشعر نفسه. وبحق نقول إن العصر العباسي كان العصر الذهبي للشعر العربي.

٢. ابو تمام

(١٨٨ - ٢٣٢ هـ) - (٨٠٢ - ٨٤٦ م)

أ - حياته

ب - صفاته وأخلاقه

ج - رأي النقاد فيه

د - ديوانه

هـ - آثاره

١ - حياته

ولد أبو تمام. حبيب بن أوس الطائي سنة ١٨٨ هـ. في قرية تسمى جاسم بناحية الجادور قرب بحيرة طبرية. ونزل مع أبيه إلى دمشق حيث نشأ وشبَّ فيها. ولما بلغ سن الرشد بدأت مواهبه بالظهور فاعتنق الإسلام، وأصبح شديد الحماسة في الدفاع عنه. ويقال إنه أسلم بعدما اقتنع وحده بالرسالة المحمدية، ونلاحظ ذلك في قوله:

نأيتُ، فلا مالاً حويتُ، ولم أقِمْ
فأُمتَعَ، إذ فجعتُ بالمال والأهل(١)

بخلْتُ على عِرضي بما فيه صَوْنه
رجاءَ اجتناء الجودِ من شجر البخل(٢)

---

(١) نأيت: ابتعدت.

(٢) يقول: إنه كان من الأحزم أن أبقى مع أهلي، ولكني فارقتهم، وأنا أطمع بنيل الغنى من أيد بخيلة.

(٢) الجود: الكرم.

عصيتُ شَبَا حزمي لطاعة جيرةٍ
دعتني إلى أن أفتح القُفل بالقَفْلِ[1]

وانتقل من دمشق إلى حمص ومدح أسرة عُتبة بن أبي عبد الكريم الطائي وكان عبد الكريم شاعراً، فأحبه وقربه منه. كما أنه التقى هناك بديك الجن الحمصي، فأخذ عنه وتأثر به إلى حد بعيد. ويقال إنه «تتلمذ عليه، فاكتسب منه الصناعة اللفظية وسار بها شوطاً بعيداً حتى نسبت إليه» وحتى قال النقاد: «إن ديك الجن يتبع مذهب أبي تمام». بدلاً من قولهم: «إن أبا تمام يقتفي مذهب ديك الجن». ويعني هذا أنه تفوق في الصنعة اللفظية على معلمه ديك الجن.

وكان أبو تمام متشيعاً للمذهب العلوي، كما كان معلمه ديك الجن. وفي حمص مدح سليمان بن نصر:

فبحقي لما خَصَصْتَ أبا الطيب
مني بطيّب من سلامِ
وثنائي من قبل هذا ومن بعدُ
وشكري غضّ لعبد السلام

---

(١) شبا: حد. حزمي: إرادتي.
تخليت عن إرادتي في متابعة السفر. تنفيذاً لرغبة أهلي، وظني أني سأتغلب على الصعاب وأنال الغنى. لكن الغنى بالرجوع إلى بلدي وأهلي.

وعبد السلام هنا هو صديقه ومعلمه ديك الجن نفسه، أما أبو الطيب فهو ابن عم ديك الجن.

وقدم أبو تمام مصر وهو في ريعان الشباب. وتم ذلك سنة ٢٠٨ أو ٢٠٩ للهجرة، ٨٢٣ ميلادية. بيد أنه لم ينل في مصر ما رجاه من العطاء، فقفل راجعاً إلى دمشق، وحاول بها عبثاً أن يحظى بالدخول على المأمون في أثناء زيارته الشام. ثم توجه بعد ذلك إلى الموصل، فأقام بها سنتين. حيث جعله الحسن بن وهب رئيساً على البريد. ثم رحل إلى أرمينية. فأعطاه واليها خالد بن يزيد عطاء جزيلاً.

وبعد موت المأمون الذي كان قد انقلب على آل علي، ولم ينتبه إلى الشاعر لأنه طالبي: أمِنَ أبو تمام، وكثرت قصائده وبزغ نجمه. ولما سمع به المعتصم حمله إليه فأمضى أبو تمام عنده مدة. ثم ولى وجهه شطر خراسان ليمدح واليها عبد الله بن طاهر بن الحسين. ثم نزل نيسابور وأقام عند صديق له هو عبد الله الدامغاني، واتصل بالقائد أبو دلف العجلي، وبالقائد حيدر بن كاوس الأفشين، وبالقائد أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري، وبجعفر بن دينار الطائي. وبقي في خراسان إلى أواخر سنة ٢٢٢ هـ، حينما تركها عبد الله بن طاهر قادماً إلى سامراء، ومعه الثائر بابك الخرمي فوصل إليها سنة ٢٢٣ هـ، ومعه الشاعر أبو تمام، وفي سامراء

أدخل المعتصم الشعراء على الأفشين ليمدحوه فمدحه أبو تمام بقصيدته:

بـذّ الـجِـلادُ الـبـذُّ فَـهْـوَ دفـيـنُ
مـا إنْ بـه إلاّ الـوحـوشُ قـطـيـنُ(١)

وفي منتصف سنة ٢٢٣ هـ - ٨٣٨ م. تجهز المعتصم لمحاربة الروم في عمورية. وكان معه الأفشين وأبو تمام. وبعد انتصاره أنشده أبو تمام قصيدته المشهورة:

الـسـيـف أصـدق أنبـاء مـن الـكـتـب
في حـده الحـد بين الـجـد واللعـب

ونال أبو تمام حظوة عند المعتصم، وعند أمراء البلاد ورجال الدولة: كأحمد بن أبي دؤاد، ومحمد بن عبد الملك الزيات، وجعفر الخياط القائد وغيرهم.

ورحل أبو تمام بعد هذا إلى عبد الله بن طاهر والي خراسان، حين استقل بها تقريباً فلما رجع في طريقه إلى العراق عرّج على همذان، فأنزله أبو الوفاء بن سلمة وأكرمه. فأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم، قطع الطرق ومنع السابلة، فقال له أبو الوفاء وطّن نفسك على المقام، فإن هذا الثلج لا ينحسر إلاّ بعد زمان. وأحضره خزانة كتبه فطالعها واشتغل بها. وصنف خمسة كتب في الشعر. منها كتاب

(١) بذ: غلب. الجلاد: القتال. الحرب.

الحماسة. الذي بقي في خزائن آل سلمة يضنون بـه حتى تغيرت أحوالهم وورد همذان رجل من أهل دينور، فظفر به وحمله إلى أصبهان، فأقبل أدباؤها عليه واشتهر فيهم ثم فيمن يليهم. وكان هو السبب الأساسي في مجد أبي تمام وشهرته. حتى قال شارحه التبريزي: «إن أبا تمام في حماسته أشعر منه في شعره».

وكثر تطواف أبي تمام بين سني ٢٢٥ ـ ٢٢٩ للهجرة ٨٤٠ ـ ٨٤٤ ميلادية. زار أثناءها حوران وحمص وعاد إلى سامراء ومدح المعتصم بعد إحراق الافشين سنة ٢٢٦ هـ. واتصل بأبي المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي والي دمشق من قبل المعتصم. وفي هذه الفترة اتصل أيضاً بمالك بن طوق التغلبي. ولقي البحتري في هذه الفترة من حياته. حيث كان شاعراً ملء السمع والبصر. وكان البحتري لا يزال حـديث الـسن مغموراً. وكان اللقاء في حمص عند القائد أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري. وبعدها انتقل إلى سامراء ليعزي الواثق بأبيه المعتصم ويهنئه بالخلافة. ثم حجّ بعد ذلك واستقر في الموصل إلى حين وفاته.

واختلف الرواة في سنة وفاة أبي تمام، كما اختلفوا في سنة مولده. ويبدو أن أبا تمام قد توفي ـ في أوثق الأقـوال وأحسنها اتساقاً مع حـوادث حياتـه ـ في المحرم من سنة

٢٣٢ هـ أيلول ٨٤٦ م . ودفن في الموصل خارج الميدان على حافة الخندق. وتقول العامة: «هذا قبر تمام الشاعر». وقد بنى أبو نهشل بن حميد الطوسي قبة عليه» أما اليوم «فإن رفاته في حديقة البلدية في ضريح ضخم».

ورثاه كثير من الشعراء منهم ديك الجن أستاذه، والبحتري تلميذه ومحمد بن عبد الملك الزيات، والحسن بن وهب. وعلي بن الجهم وسواهم.

صفاته واخلاقه

يقول ابن خلكان: «كان أسمر طويلاً فصيح الكلام فيه تمتمة بسيطة». وجاء عنه بكلمة للأنباري بأنه: «كان موصوفاً بالظرف وحسن الأخلاق وكرم النفس».

وبسبب هذه التمتمة اشترى له أبو سعيد الثغري غلاماً أديباً فصيحاً اسمه الفتح بثلاثمائة دينار ليلقي له قصائده. وكان يلقي قصائده بنفسه. وقيل: «إنما كان إنشاده قبيحاً». وزاد ابن رشيق فقال: «وكان في حبيب حبسة شديدة إذا تكلم». وقال فيه مخلد بن بكار الموصلي:

يـا نـبي الله فـي الشـعـر ويـا عيـسى بـن مـريـم
أنـت مـن أشـعـر خـلق الله مـا لـم تـتـكـلم

أما أخلاقه «فكانت أخلاق شاعر عباسي، غير أنه لم يكن متهتكاً، بل كان يأتي ملذاته في ستر».

وكان أبو تمام مُرَزّئاً: مات نفر من أهله. من أخوة وأولاد له في حياته. وقد «مات نفر من هؤلاء في عام واحد». وفي هذا يقول:

تـتـابـع فـي عـام بـنـيّ وإخـوتـي
فـأصـبحـتُ إنْ لـم يـخلفِ الله مفرداً[1]

أما أبواه فلم نجد إشارة إليهما في ديوانه. إلاّ أن تكون الرسالة التي جاءت إليه «موشحة بالسواد نعياً لأحدهما». ونعرف أخاً له اسمه ـ سَهْمْ ـ.

تزوج من امرأة ولم تلبث أن فارقت الحياة وكانت «صغيرة السن». فرثاها. وكانت له جارية، بمعنى الزوج لا بمعنى الولد، «ماتت في حياته أيضاً».

توفي لأبي تمام ابن اسمه محمد. رثاه رثاء يدل «على أنه لم يكن له آنذاك ولد غيره» وفي ديوانه مرثية له في ابن آخر يكنيه أبا عليّ. ويذكر أنه كان يوم توفي وحيداً له، وأنه قد بلغ مبلغ الشباب. وفيها يقول:

كـان الـذي خِـفْـتُ أن يـكـونـا
وإنّـا إلـى الله راجـعـونـا
أمـسـى الـمـرجـى أبـو عـليّ
مـوسـداً فـي الـثـرى يـمـيـنـا

(١) إن لم يخلف الله: إن لم يرزقني ولداً من جديد.

حين انتهى واستوى شباباً
وحقق الرأي والظنونا

وله ولد ثالث اسمه تمام «عاش بعده مدة» وهو الذي يتكنى به الشاعر.

راي النقـاد فيـه

لقد شغل أبو تمام النقاد والباحثين، وأثار حول شعره جدلاً عنيفاً. إذ اندفع الأدباء إلي ديوانه ينشرون حسناته أو سيئاته، ويجادلون فيها حقاً وباطلاً.

وقد عرفنا في تاريخنا الأدبي أن الرواة كانوا يفضلون امرأ القيس على سائر شعراء الجاهلية، ويرفعون زهير فوق النابغة، أو يحكمون لأبي نواس على مسلم بن الوليد وكذلك كان شأن النقاد بالنسبة لجرير والفرزدق والأخطل. أما بالنسبة لأبي تمام فكان النقاد منقسمين، معه وعليه، ينصره فريق، ويخذله آخر، يمدحه هذا، ويهجوه ذاك. ومن أهم المدافعين عنه أبو الفرج، إذ يقول في الأغاني: «وفي عصرنا هذا من يتعصب له، فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف. وأقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ويستعملون القِحّة والمكابرة في ذلك ليقول الجاهل بهم أنهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزَه. إلاّ بأدب فاضل وعلم ثاقب. وهذا ممّا يتكسب به كثير من أهل هذا الدهر ويجعلونه، وما جرى مجراه من ثلب الناس وطلب مصائبهم، سبباً للترفع وطلباً

للرئاسة. وليست إساءة من أساء في القليل، وأحسن في الكثير مسقطةً إحسانَه. ولو كثرتْ إساءته أيضاً ثم أحسن لم يُقل له عند الإحسان أسأت ولا عند الصواب أخطأت. والتوسط في كل شيء أجمل، والحق أحق أن يتبع. . . . وقد فضل أبا تمام من الرؤساء والكبراء والشعراء من لا يثق الطاعنون عليه غبارة ولا يدركون ـ إن جدوا ـ آثاره، وما رأي الناس بعده إلى حيث انتهوا له في جده نظيراً ولا شكلاً. . وكان ابن مهرويه تحامل على أبي تمام لا يضر أبا تمام هذا منه، وما أقل ما يقدح مثل هذا في مثل أبي تمام».

وقد ألف بعض الأدباء مؤلفات في فضائل أبي تمام وفي مثالبه. فمن الكتب التي ألفت في فضائله. كتاب أخبار أبي تمام للصولي، وأخبار أبي تمام والمختار من شعره للنميسطائي، وكتاب للمرزباني، وأخبار أبي تمام ومحاسن شعره للخالديين. وكتاب سرقات البحتري من أبي تمام لأبي ضياء النصيبي ومن الذين ألفوا في مثالب أبي تمام: ابو القاسم الحسن بن بشر الآمدي وأبو العباس أحمد بن عبيد الله القطربلي ورجل اسمه عبد الكريم.

وقد تحامل الآمدي في كتاب الموازنة على أبي تمام. إلّا أن بعض المؤلفين ردوا عليه. يقول ابن النديم: «إن في الآمدي تحاملاً على أبي تمام». ونسبه الشريف المرتضي «إلى الغلو في انتقاد أبي تمام». ويخبرنا ياقوت ذلك بتفصيل

وافٍ فيقول: «ولأبي القاسم ـ الآمدي ـ تصانيف كثيرة جيدة مرغوب فيها، منها كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري. وهو كتاب حسن وإن كان قد عيب عليه في مواضع منه، ونسب إلى الميل مع البحتري فيما أورده والتعصب على أبي تمام فيما ذكره.. فإنه جدّ واجتهد في طمس محاسن أبي تمام وتزيين مرذول البحتري». وياقوت لا ينكر فضائل البحتري بل يقول: «لو أنصف ـ الآمدي ـ وقال في كلّ واحد بقدر فضائله لكان في محاسن البحتري كفاية عن التعصب بالوضع من أبي تمام».

ويقول أبو هلال العسكري: «شعر أبو تمام متأثر تأثراً كبيراً بشعر ديك الجن». ومن هنا بدأ التحامل عليه. وفي هذا يقول أبو الفرج: «ما كان أحد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهماً بالشعر في حياة أبي تمام. فلما مات اقتسم الناس ما كان يأخذه». وتبين هذه الرواية شدة الحملة عليه من شعراء ونقاد عصره، خاصة بعد وفاته، لأنه في حياته لم يترك لهم مجال الكلام والاستفادة منه. أو أنهم لم يرتقوا إليه بشعره ومعانيه. ويقول ابن رشيق: «وليس في المولدين أشهر اسماً من الحسن أبي نواس، ثم حبيب والبحتري» أما البحتري، وهو من أشهر المولدين بعد أبي تمام فقد اعترف بتقديم صاحبه فقال: «إنّ أبا تمام لَلرَّئيس والأستاذ. والله ما أكلتُ الخبز إلاّ به». «وكان أصل نباهة البحتري أن صار إلى أبي تمام في حمص فعرض عليه شعره فاستحسنه أبو تمام، وكتب إلى أهل معرة النعمان

وشفع له إليهم». ثم لم تعرف للبحتري نباهة وشهرة حتى مات أبـو تمام. ثم ان العلمـاء ذلّلوا أشعار الأوائـل ولم يحفلوا بالمحدثين فجهلوا الإجابة عن أشعارهم فعمدوا إلى الطعن عليهم، وخصوصاً أبا تمام لأنه أقربهم عهداً وأصعبهم شعراً.

ومن أشهر الذين نـاصبوا أبـا تمام العـداء في حياتـه دعبل بن علي الخزاعي. إذ «كان يثلبه ويكذب عليه، ويضع عليه الأخبار، وينسبه إلى سرقة معاني الشعراء». وقد ادعى دعبل أيضاً «أن أبا تمام كان يسرق منه» وبلغ من تعصبه على أبي تمام أنه «أنشد يوماً شعراً»، ثم سئل رأيه فيه فقال: «والله، أحسن من عافية بعد يأس». فلما قيل له: «إنه لأبي تمام، قال: لعله سرقه». ولكن لما توفي أبو تمام عاد دعبل فمدحه.

وكان من أعداء أبي تمام أيضاً إبراهيم بن المدبر. كان «يتعصب عليه ويحطه عن رتبته، ويستجيد شعره ولكن لا يوفيه حقه» وكذلك كان ابن الأعرابي الذي قال عن شعر أبي تمام: «إن كان هذا شعراً، فكلام العرب باطل» وقصد بذلك كثرة التكلف في شعره.

وعاب ابن المعتز أبا تمام بأنه «أفسد ذوق معاصـريه بإفراط المعاني والمجازات». ويقول ابن الرومي في بعض رسائله إلى محمد بن أبي حكيم الشاعر: «إن أبا تمام الطائي كان يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ، حتى لو تبين له المعنى

بلفظة نبطية لأتى بها». ولكن ابن رشيق يقول في العمدة: «إنه ابتدأ بوضع قوافي القصيدة وطلب الأبيات بعدها». ويروى: أن يعقوب الكندي، لما رأى كد أبي تمام ذهنه في تحلية شعره بالمعاني والبديع قال فيه: «هذا رجل يموت قبل حينه. لأنه حمل على كيانه بالفكر» وبالفعل مات أبو تمام وهو في ريعان الشباب.

وأنكر الجرجاني في أسرار البلاغة، والمرزباني في الموشح على أبي تمام «كثرة استعمال الغريب المصدود عنه، من الكلمات وأسماء الأمكنة. ولقد هجا أبو تمام يوسف السراج الشاعر المصري باستعمال الغريب في غير موضعه حتى إن زهيراً لو نبش عنه المقابر لصرخ بالعويل وبالنحيب، وأن كلامه أقرب إلى تفسير بقراط الطبيب منه إلى الشعر».

يبقى كلمة وهي أن شعر أبي تمام، شعر خالد، وفيه نكهة الحروب وطنين السلاح. وتبرز قوة الشاعرية لديه، والعبقرية التي حملت شعره لكي يصبح كالمثل السائر لكثرة ما فيه من حكمة وحقائق، ووجوه ذات قيمة أدبية وجمالية.

ديوانه

أقدم نسخة من ديوانه وصلت إلينا وفيها الشروح الوافية الكافية هي شرح أبي بكر الصولي، الذي كان معجباً بأبي تمام ومن المتعصبين له. إذ جمع نخبة صالحة من أشعاره وشعره ثم شرح ديوانه. وكان الشرح موجزاً لمعاني الأبيات، بعيداً عن التعرض لمسائل اللغة والنحو. وشرح الصولي يتناول النصف الأول من الديوان.

ومن شراح أبي تمام المتقدمين الإمام الخارزنجي. وقد اهتم هذا بالتفسير اللغوي. ثم يأتي أبو القاسم الآمدي. وهو الذي هاجم أبا تمام في كتابه ـ الموازنة ـ وبعده أتى أبو علي المرزوقي. حيث كان معجباً بأبي تمام، ومتعصباً له. وكان كثير العناية في شرحه. وحاول أن يصحح الروايات التي رآها تتحامل على أبي تمام أو التي لا يرضاها المألوف من مذهب الشاعر: أو من مذاهب الشعراء. وللمرزوقي كتاب الانتصار من ظلمة أبي تمام.

وكان أبو العلاء المعري، في عصر المرزوقي، من أشد المعجبين بأبي تمام وبشعره. شرح ديوان أبي تمام وسمّاه

ـ ذكرى حبيب ـ إعجاباً بالتورية بين ـ حبيب ـ بمعنى المحبوب والمعشوق وبين ـ حبيب ـ بن أوس اسم الشاعر أبي تمام. وجاء شرح المعري لغوياً بالدرجة الأولى، وركز فيه على تفسير المعاني. وكان هَمُّ المعري أن يبرز جمال القول عند أبي تمام ودافع عنه بكل السبل والوسائل. وبعده أتى الخطيب التبريزي، تلميذ المعري وشَرحُ التبريزي لشعر أبي تمام يقوم في الأكثر على الجمع بين الشروح التي تقدمت. وكان لابن المستوفي الأربلي كتاب النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام في عشر مجلدات. وابن المستوفي يجمع شروح الشراح على شعر أبي تمام منذ أيام الصولي، وهو عالم محقق أمين ينسب كل قول من أقوال الشارحين إلى صاحبه. وقد يعقب على هذه الأقوال.

آثاره

ذكر ابن النديم أن «لأبي تمام الطائي مؤلفات هي: كتاب الحماسة، كتاب الاختيارات من شعر الشعراء. كتاب الاختيارات من شعر القبائل، ثم كتاب الفحول». وقد عني السيد محسن الأمين بتعداد هذه المؤلفات، وبأقوال مؤرخي الأدب فيها وفي أمثالها عناية فائقة. ومن هذه المؤلفات:

١ ـ ديوان الحماسة:

أو كتاب الحماسة، أو الحماسة الكبرى. ومناسبة تأليف ووضع هذه الحماسة «أنه زار عبد الله بن طاهر والي خراسان، وكان يقيم في نيسابور، فمدحه ثم عاد وشيكاً» وفي أثناء رجوعه اعترضه الثلج عند مدينة همذان وكان الشتاء في ذلك العام شديداً. فمال إلى صديق له هنالك اسمه أبو الوفاء بن سلمة، ريثما يذوب الثلج، ويتابع سيره إلى العراق. وانصرف أبو تمام إلى مكتبة أبي الوفاء. وجمع أثناءها كتاب الحماسة. وقد اختار أبو تمام في ـ ديوان الحماسة ـ نحو سبعمائة وثمانين قطعة لنحو أربعمائة وخمسة وستين شاعراً من الشعراء المقلين ولا سيما المغمورين منهم، سوى

المجاهيل. وفي ديوان الحماسة نحو عشرة أبيات مفردة، ثم هنالك بضع مختارات تتألف كل واحدة منها من ثلاثة أشطر في الرجز، ولكن معظم المختارات تتألف من مُقَطّعات يتراوح عددها بين بيتين وبين عشرة أبيات. وفي الحماسة أيضاً مقاطع قليلة تزيد أبياتها على عشرة وتقل عن عشرين. أما المقاطع التي يزيد عدد أبياتها على عشرين فهي ست:

- قصيدة السموأل بن عاديا:

«إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه».

- قصيدة المنخّل بن الحارث اليشكري:

«إن كنتِ عاذلتي فسيري».

- قصيدة العُديل بن الفرخ العجلي:

«ألا يا أسلمي، ذات الدماليج والعقد».

- قصيدة يزيد بن الحكم الثقفي:

«ويا بدر، والأمثال يضربها لذي اللب الحكيم».

- قصيدة تأبط شراً: «إنّ بالشِعب الذي دون سلع».

- قصيدة زياد بن حَمَل بن سعد:

«لا حبذا، يا صنعاء، من بلد».

وهذه الأخيرة هي أطول قصائد الحماسة. فإنها أربعة وأربعون بيتاً. وضمت الحماسة مقاطع لجميع الشعراء المقلين والمكثرين، والقدماء والمحدثين والمشهورين

والمغمورين. وضمت الحماسة من المشاهير المهلهل، وطرفة، وعمرو بن كلثوم، وعنترة والنابغة من العصر الجاهلي وحسان والخنساء والفرزدق والأخطل وجميل بن معمر في عصر صدر الإسلام. وأبا العتاهية، والعباس بن الأحنف، ومسلم بن الوليد وبكر بن النطّاح من المحدثين.

وقد قسم الحماسة إلى عشرة أبواب وهي الجامعة لفنون الشعر: الحماسة، المراثي، الحكمة، النسيب، الهجاء، المديح، الوصف، السير والنعاس، الملح، مذمة النساء. ومن الواضح أن كتاب الحماسة يدل على سعة اطلاع الشاعر، وغزارة علمه بالشعر وحسن ذوقه في الاختيار حتى قيل: «إن أبا تمام كان في اختياره لديوان الحماسة أشعر منه في شعره».

وقد عدّ السيد محسن الأمين شروح ديوان الحماسة فوجدها أربعة وثلاثين شرحاً. بعضها شروح عامة كشرح الإمام المرزوقي ـ وشرح الخطيب التبريزي. ومنها أيضاً شروح خاصة تتناول أوجهاً معينة من هذا الديوان القيم.

٢ ـ الحماسة الصغرى، وتعرف أيضاً باسم الوحشيات:

يحتوي هذا الكتاب شعراً لشعراء العرب القدماء. وهو مرتب على عشرة أبواب هي، أبوا الحماسة الكبرى نفسها.

٣ ـ كتاب الفحول، أو كتاب فحول الشعراء: أو كتاب

اختيار شعراء الفحول. وفيه شعر للجاهليين والمخضرمين والاسلاميين.

٤ ـ الاختيار القبائلي الأصغر: اختار فيه أبو تمام مقاطع من محاسن أشعار القبائل ومعظمه لغير المشهورين.

٥ ـ كتاب الاختيار من شعر القبائل، ويسميه السيد محسن الأمين «الاختيار القبائلي الأكبر».

٦ ـ اختيار المقطعات: يبدأ فيه بالغزل، وجمع فيه لغير المشهورين من القدماء والمتأخرين.

٧ ـ كتاب مجرد من أشعار المحدثين.

وقد قلد أبا تمام كثير من الشعراء والأدباء والنقاد، في جمع شعر العرب. وعرف هذا الجمع عند هؤلاء باسم ـ الحماسة ـ أيضاً. ومنه:

١ ـ حماسة البحتري ـ البحتري: تلميذ أبي تمام. وكان يتشبه به وينحو نحوه. فألف «كتاب الحماسة» على مثال حماسة أبي تمام. على أن البحتري عني بالأغراض ـ بالمعاني المفصلة: حمل النفس على المكروه، مجاملة الأعداء. الأنفة. وركوب الموت خشية العار، مؤاخاة الكرام.. الخ. ولم يُعنَ بالفنون مثل الحماسة، المراثي، الهجاء. كما فعل أبو تمام.

٢ ـ حماسة الخالدين ـ الخالديان هما: أبو بكر محمد وأبو سعيد عثمان ابنا هاشم وكانا من أحياء القرن الهجري الرابع، ومن الذين كانوا في بلاط سيف الدولة ولهما من الكتب ـ حماسة شعر المحدثين ـ.

٣ ـ الحماسة العسكرية لأبي هلال العسكري.

٤ ـ الحماسة لأبي السعادات، هبة الله بن علي الشجري العلوي. وتعرف بمختارات الشجري. ويتناول فيها فنوناً من الشعر كالمديح والرثاء. وهي حماسة وسط بين حماسة أبي تمام، وحماسة البحتري.

٥ ـ حماسة أحمد بن فارس. الأديب اللغوي المشهور.

٦ ـ الحماسة للأعلم الشنتمري الأندلسي.

٧ ـ الحماسة لعلي بن الحسن المعروف بتميم الجليّ، وتتألف من أربعة عشر باباً.

. ـ الحماسة البصرية لصدر الدين علي بن أبي الفرج البصري.

٩ ـ الحماسة المغربية لأبي الحجاج بن محمد الأندلسي، البياسي، وهي حماسة كبيرة تقع في مجلدين، وقد كتبت وألفت في تونس سنة ٦٤٦ هـ ١٢٤٨ م.

٣. فنونه وأغراضه

أ - المديح

أ - الفخر

ج - الرثاء

د - العتاب

هـ - الوعيد والتهديد

و - الوصف

ز - الغزل والنسيب

ح - الحكمة

ط - الزهد

٢ - فنــونه واغراضــه

خاض أبو تمام في فنون الشعر جميعها، ولكن شهرته، وقوة شعره كانت بفنين هما: المديح والرثاء.

وإذا تصفحنا ديوانه وجدنا أنه لم يبلغ من كثرة القصائد، ما بلغته دواوين أترابه من الشعراء، كأبي نواس والبحتري وابن الرومي، وغيرهم ممّن جـادوا على الشعر العـربي، وأغنوا التراث فيه. ومن هنا كان ديوانه متوسط الحجم. وكان الشعراء آنذاك يحرصون على جمع آثارهم في حياتهم. وهذا ما فعله أبو تمام. ويؤكد قولنا ما ذكره عثمان بن المثنى القرطبي الذي «رحل إلى المشرق وقـرأ علي حبيب بن أوس ديوان شعـره وأدخله الأندلس رواية عنه». أي أن أبا تمام كان جامعاً لشعره ولقنه لعثمان بن المثنى.

وجاء في رواية ابن النديم قوله، عندما بدأ تأليف كتابه - الفهرست «كان شعر أبي تمام لا يزال متفرقاً، غير مجموع جمعاً منسقاً على طريقة ما، فقدره بنحو مائتي ورقة، أي أربعة

آلاف بيت». ورتّبه أبو بكر محمد بن يحيى الصولي على الحروف في نحو ثلاثمائة صفحة. وهذا ما صنعه أيضاً علي بن حمزة الأصفهاني.

وبعد هذا نقف على أغراضه وفنونه، ونبدأ.

١ ـ المديح

والمديح فن من فنون الشعر العربي، وغرض من أغراضه، ساد الشعر العربي منذ النشأة حتى الآن. ولا نكاد نعرف شاعراً من الأقدمين أو المحدثين إلا وتكلم في هذا الغرض، وقال فيه القصائد الكثيرة.

وكان المديح هدف الشعراء وغايتهم المنشودة لدى الأمراء والخلفاء والقواد، وسبباً في الأعطيات والهبات.

والمديح بصورته المعروفة هو إبراز الصفات الحسنة لدى الممدوح، وتصويرها بشكل فني، حتى يصل إلى الغلو في أحيان كثيرة. ويستغل الشاعر أدوات مهمة في إبراز تلك الصورة الحسنة، يستخدم الماضي والحاضر، والحسب والنسب، والأصول والأعراق، والإسلام والدين، والإيمان والتقى والخير والبر، والكرم والجود، والخبرة والوفاء، والإباء والشمم، والأمن والأمان، والعلم والمعرفة. وفيه كل الصفات التي تجعل الممدوح رمزاً من رموز الحياة.

ولا يستطيع دارس الأدب أن يعتمد في نقد المديح على مدائح الشاعر، فهي لا تشكل في الغالب المادة الصادقة

للحكم. لأن حماسة الشاعر تزيد أو تنقص حسب زيادة أمله أو نقصه في نوال الممدوح. وكثيراً ما نرى في تاريخنا الأدبي أن شاعراً يمدح شخصاً ثم ينقلب عليه فيهجوه. وهذا ما نجده عند أبي تمام نفسه، الذي عرف كيف يصرف مدحه إذ لم «ينتفع في أيامه شاعر بدرهم». إذ كان سيد المواقف، والشاعر المحلق الذي لا يجاريه أحد في هذا المجال.

ويمتاز مديح أبي تمام بأربعة مظاهر هي:

١ ـ الإشادة بالقومية العربية والدين الإسلامي: فهو يستمد منهما تاريخاً وعظمة. واستطاع أن يفوز بإعجاب بني العباس مع احتفاظه بحب آل البيت، ولا ننس أن الميل إلى بني عليّ كان جريمة يومذاك. وقد صور أبو تمام تعلقه بالعروبة في كثير من مدائحه. لقد افتخر بطيء، ومدح سادتها «وطيء قبيلة عربية جنوبية قحطانية». فإذا بها وجهٌ مشرق من أوجه العرب، يُعلِّم التفكير والعزيمة ويُلهم الشعر البديع، ويحمم المكارم، ويورقُ المجد، ويساير الأجيال الآتية بأحاديث الأكرمين الأولين من العرب الطائيين. ويتجلى ذلك في مدحه لعمر بن عبد العزيز الطائي.

إنَّ الكرام كثيرٌ في البلاد وإن
قَلّوا، كما غيرُهم قُلٌّ وإن كثُروا

نـعـمَ الـفـتـى عُـمَـرٌ فـي كـلِّ نـائـبـةٍ
نـابـتْ، وقـلْ لـهُ: «نعم الـفـتـى عـمـرُ»
لـلّه درُّ بـنـي عـبـد الـعـزيـز، فـكـمْ
أُردوا عـزيـزَ عِـدىً فـي خـدِّه صَـعَـرُ[1]
تـتلى وصـايـا الـمـعـالي بـيـن أظـهـرهـم
حـتـى لـقـد ظـنَّ قـومٌ أنّـهـا سُـورُ[2]
يـا لـيـتَ شـعـريَ مـن هـاتـا مـآثـرهُ
مـاذا الـذي بـبلوغِ الـنـجـمِ يـنـتـظرُ[3]؟
بـالـشّعـر طـولٌ إذا اصـطكّتْ قصـائـدُه
فـي مـعـشـرٍ، وبـه عن مـعـشـرٍ قِـصَـرُ[4]
سـافـر بـطـرفـكَ فـي أقصَـى مـكـارمـنـا
إذ لـم يـكـن لـك فـي تـأثـيـلهـا سَـفَـرُ[5]

(١) الصعر: إمالة الخد تكبراً. أردوا: أهلكوا.
(٢) المعالي: جمع معلاة وهي الشرف والرفعة. بين أظهرهم: أي بينهم. سور: آيات الوحي.
(٣) يا ليت شعري: يا ليتني أعلم. هاتا: هذي. مآثره: أعماله المأثورة عنه.
(٤) اصطكت: ازدحمت واضطربت. معشر: قوم.
(٥) أقصى: أبعد. الطرف: العين. تأثيلها: تأصيلها وتزكيتها. والمعنى: إن لم تسافر فيها فانظر إليها ترها.

هَلْ أورقَ المجدُ إلاَّ في بني أُدَدٍ
أو اجتُنى قطُّ لولا طيِّءٌ ثَمَرُ[1]

لولا أحاديثُ أبقتها أوائلُنا
من الندى والرَّدَى لم يُعجب السَمَرُ[2]

ومدح أحمد بن أبي دؤاد الإيادي. «وإياد قبيلة عربية شمالية عدنانية» وهي وجه عربي آخر، وجه عدناني فيه قوة، ومآثر كريمة، وهو في الناس كالبدر علواً وإضاءة. وفي هذا يقول:

أضحتْ إيادٌ في معدٌ كلِّها
وهُمُ إيادُ بنائِها الممدودِ[3]

وقال في علوها ومركزها الرفيع الذي يعتبره كالبدر علواً وإضاءة.

وبدرُ إيادٍ أنتَ لا ينكرونه
كذاك إيادٌ للأنام بدورُ[4]

(١) المجد: العز والرفعة. اجتنى: قطف. أدد: هو الأزد الكهلاني ومن فروعه طيء.

(٢) أوائلنا: أجدادنا. الندى: الكرم. الردى: الهلاك. السمر: أحاديث الليل.

(٣) إياد: هم القسم الثالث من العرب العدنانيين. وهم أول معدي خرج من تهامة. والإياد: الستر، والكنف، والجبل الحصين.

(٤) الأنام: البشر. البدور: جمع بدر، القمر ليلة التمام.

ومدح حفص بن عمر الأزدي. والأزد قبيلة من القبائل العربية القحطانية، وهو «أُدَدُ الكهلاني الذي تفرعت منه طيء» هذا الوجه لا يتألق في قحطان وحدها بل في عدنان أيضاً. لأن الممدوحَ يوحد بينهما للحفاظ على رسالة الإسلام العظمى وهو بذلك يبسط أشعة الإشراق على خراسان، فيميتُ ليل أوباشها الحاقدين على الإسلام الذي حمله إليهم العربُ سعةً ورحمة.

وأبو تمام في هذه القصيدة لا يؤرخ لنسبه العربي فحسب، ولكنه يدخل باب التاريخ الواسع، فيحول أحداثه شعراً. «إنه يروي قصة الصراع القديم بين الفرس والعرب. إذ كان العرب في خراسان قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام نَظَّم العرب، وأخرجهم من جاهليتهم، ونشر رسالة نبيِّهم رحمة ونوراً في الأرض؛ وانتشر الإسلام في خراسان، ولكن الذين لم تُشْرح صدورهم للإسلام كادوا له وحاولوا تهديمه عمداً ببث الفرقة بين العرب.

ولما كان العرب أكثر الناس مسؤولية عن الرسالة الجديدة، لأن النبي بعث منهم، وإن الممدوح أبا عبد الله حفص بن عمر الأزدي، وحَّدَ قبائل العرب العدنانية والقحطانية، وألف بين جموعها، فانتصرت على دسائس الأوباش. ولما أماتت أنجم العرب ظلام الدسائس الأجنبية،

تحلقتْ حول قائدها الأزدي العربي تستمد من شجاعته القوة ومن رأيه النصر.

وهذه أبيات من قصيدة في مدح حفص بن عمر الأزدي، تؤكد وجه العروبة.

فأُبْست، وقد مجّتْ خراسانُ داءها
وقد نَغِلَتْ أطرافُها نَغَلَ الجِلدِ[1]

وأوباشها خُزْرٌ إلى العرب الأُلى
لكيما يكونَ الحرُّ من خَوَلِ العَبْدِ[2]

ليالي باتَ العزُّ في غير بيتهِ
وعُظِّمَ وَغْدُ القوم في الزمنِ الوغدِ[3]

وما قصدوا، إذ يسحبون على المنى
برودَهم، إلاَّ إلى وارثِ البُردِ[4]

---

(١) مجت: رمت. خراسان: من بلاد فارس. داءها: مرضها. نغلت: فسدت. ونغل الجلد: فسد من الدباغ. ونغل الجرح: فسد، أو بريء وفيه شيء من الفساد أطرافها: جهاتها.

(٢) أوباشها: الأوباش، سفلة الناس وأخلاطهم. خزر: جمع خزراء وأخزر وهو من ينظر بمؤخر عينه ويتداهى، وهذا نظر العداوة. الألى: الأوائل. الخول: الخدم.

(٣) الوغد: الدنيء.

(٤) البرود: الثياب. المنى: الأماني، ما يتمناه المرء. وارث البرد: أراد بهذا الخليفة، لأن برد النبي ﷺ كان عند بني العباس.

ورامــوا دَمَ الإســلام لا مــن جــهــالــةٍ

ولا خــطأ بــل حــاولــوه عــلى عــمــدِ[1]

فــمجــوا بــه سُــمّــاً ذعــافــاً، ولــو نــأتْ

سيــوفُــك عنهم كــان أحلى من الــشهــدِ[2]

ضَــمَــمْــتَ إلى قــحــطانَ عــدنــانَ كــلّهــا

ولــم يَــجــدوا، إذ ذاكَ مــنْ ذاكَ مــن بُــدِّ[3]

فــأضــحَــتْ بــكَ الأحــيــاءُ أجــمــعُ ألــفَــةً

وأحكمُ في الهيجــاءِ نــظمــاً من العــقــدِ[4]

ولــمّــا أمــاتــت «أنــجــمُ الــعــرب» الــدجى

بَهَــرَتْ وهي أتبــاعُ لــكــوكبــك الــسَّعْــدِ[5]

فــهــمْ مــنــكَ في جيشٍ قــريــبٍ قــدومُــه

عــليهــمْ وهم مــن يُمْــنِ رأيــكَ في جُــنْــدِ[6]

---

(١) راموا: طلبوا. عمد: تصميم سابق وتدبير.

(٢) مجوا: رموا. ذعافاً: يقتل لساعته. نأت: بعدت.

(٣) بد: مناص، مهرب؛ تقول: لا بد من هذا، أي لا مهرب منه.

(٤) ألفة: مؤتلفة. أحكم: أمتن. الهيجاء: الحرب.

(٥) أنجم العرب: كناية عن أحياء العرب وفرسانهم. الدجى: الليل، كناية عن الأوباش المذكورين.

(٦) اليمن: البركة.

رأيتُ حروبَ الناسِ هزلاً وإن علا
سناها، وتلك الحربُ معتَمدُ الجدِّ[1]

وأية حرب يريد أبو تمام؟ أهي الحرب بين فرس وعرب أو فرس وروم؟ أم هي الحرب بين دين وكفر؟.

لقد مدح المعتصم في قصيدتين تلقيان الضوء على الجواب. والمعتصم بن هارون الرشيد العباسي، وبنو العباس هاشميون من قريش، والوجه الهاشمي أسنى أوجه العرب، لأن رسول الله ﷺ منهم.

وأولى القصيدتين، قالها يمدح المعتصم، ويذكر أمر الافشين وهو خيزَزين كاذوس. والثانية في فتح عمورية.

والقصيدة الأولى تبرز جانباً من علاقة العرب بالفرس من خلال المعتصم والإفشين. والثانية تبرز جانباً من علاقة العرب والروم. وعندما ظفر الإفشين ببابك الخرمي مدحه أبو تمام بقصيدة طويلة اعتبره فيها مُعزّاً للدين، وهازماً للكفر وختمها بقوله:

فسيكثرُ الإسلامُ ما أوليتَه
والله عنه بالوفاء ضمين[2]

(١) سناها: ضوءها ورفعتها. الجد: الاجتهاد، المحقق المبالغ فيه. المعتمد: المرتكز.

(٢) أوليته: قدمت له من عطاء وولاء وخير. ضمين: ضامن. يعني سيفي لك الله حسن صنيعك للإسلام بقتل بابك الخرمي.

ولكن الإفشين كان يظهر الإسلام ويبطن الكفر والحنين إلى دين آبائه المجوس. فقتله المعتصم. وقال أبو تمام في ذلك قصيدة، يعرض فيها لفكرة الحق الواضح، وعذر المعتصم في قتل قائده. لأن هذا كان يدبر فتنة بالاتفاق مع ـ مازيار ـ خلف بابك الخرمي. وكان يبطن الكفر والنفاق. ولا يرى أبو تمام عجباً في ذلك لأن النبي ﷺ وهو صفوة ربه من بين الأنام لم يسلم مَع ذلك من أهل النفاق الذين قاوموه في حياته وآذوه بآل بيته بعد وفاته، وكربلاء شاهد صادق على ذلك.

والمعتصم معذور إن خدع بنفاق الإفشين وأمثاله لأن النبي ﷺ ما سلم من ذلك، وهو معذور إن بطش بالإفشين بعد معرفة نفاقه وصلته بمازيار.

ويقدم الشاعر نصيحة للمعتصم، بأن يجعل الخلافة بابنه الواثق. لأنه فتى بني العباس، والقمر الذي تحيط به أنجمُ يعرب ونزار، ولأنّ الأرض دار تقفر إذا يكن رُبُّ الدار من بني هاشم. ومن أبيات القصيدة قوله:

يا رُبَّ فتنةِ أُمَّةٍ قَدْ بزَّهـا
جبّارُها في طاعةِ الجبّارِ(١)

---

(١) بزها: غلبها. جبارها: الخليفة المعتصم. الجبار: الله جلّ جلاله.

هـذا الـنـبـيُّ وكـان صـفـوةَ ربّـه
من بـيـن بـادٍ فـي الأنـامِ وقـارِ[1]

قـد خصَّ مـن أهـلِ النِّفـاقِ عِصـابـةً
وهُـمُ أشـدُّ أذىً مـن الـكـفّـارِ[2]

فـاشْـدُدْ بـهـارونَ الـخـلافـةَ إنّـه
سَـكَـنٌ لـوحـشـتـهـا ودارُ قَـرارِ[3]

بـفـتـى بـنـي الـعـبـاس والـقـمـر الـذي
حـفّـتْـه أنـجـمُ يَـعْـرُبٍ ونـزارِ

كـرم الـعـمـومـة والـخـؤولـة ضـمّـه
سـلـفـا قـريـشٍ فـيـه والأنـصـار

هـو نـوءُ يـمـن فـيـهـمُ وسـيـادةٍ
وسـراجُ لـيـل فـيـهـم ونـهـار

فـالأرضُ دارٌ أقـفـرتْ مـا لـم يـكـنْ
مـن هـاشـمٍ ربٌّ لـتـلـك الـدار[4]

---

(١) باد: ساكن البادية. قار: ساكن القرية أي الحاضرة.

(٢) خصَّ: اختص واعتمد على النفاق: مخالفة الظاهر للباطن. عصابة: جماعة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي كان يحرف الوحي وهو من كتبته عند النبي فأهدر النبي دمه يوم الفتح، وشفع له عثمان ـ كما في شرح التبريزي ـ.

(٣) هارون: ابن المعتصم الملقب بالواثق.

(٤) أقفرت: خلت. الرب: هنا الصاحب.

سُــوَرُ الـقُــرآنِ الـغــرُ فـيـكــم أنــزلـتْ
ولـكـمْ تُـصــاغُ مـحــاســنُ الأشـعــار[١]

فالحرب في نظر أبي تمام هي بين دين وكفر. والنبي ﷺ كان عرضة للمنافقين في حياته. وبعد مماته حينما تعرضوا لدعوته، وحاولوا إفسادها، وصرف الناس عنها. وما لم تنبرِ لها الأنجم العربية من بني هاشم فإن ظلام الكفر يعود إلى السيطرة.

وبنو هاشم سادة الدنيا وهداتها أنزلت فيهم غُرَرُ سور القرآن ولهم «تصاغ محاسن الأشعار».

وقصيدة فتح عمورية تؤكد، أن الحرب بين العرب والروم ليست حرباً عرقية، بل هي حرب بين الدين والكفر. وفيها ينتصر الدين ممثلاً بالعرب على الكفر ممثلاً في الروم.

وقصة تلك الموقعة الشهيرة في التاريخ تقول: إن تيوفيل امبراطور بيزنطة كان يساند بابك الخرمي. وقد أغار على زبرطة، وهي مدينة بين سميساط والحدث في الطريق إلى بلاد الروم. وأعالي الفرات. ولكنّ المعتصم ردَّ على الإغارة بتخريب أنقرة وفتح عمورية. وقد عبر أبو تمام عن فرحته تلك بقصيدة رائعة، ذكر فيها تحقيق منى الإسلام بيوم عمورية.

---

(١) القران: هو القرآن. الغر: البيض.

ودعا للخليفة بحسن الثواب على خدمته للدين، والإسلام، والحسب. وقارن بين انتصاره على الروم في عمورية وبين انتصار النبي على المشركين في بدر، وخلص إلى أنّ هذا اليوم ينتسب إلى ذلك اليوم، وكلا اليومين وما يشبههما يشرّف العرب.

وقصيدة فتح الفتوح من أهم القصائد التي أنشدها أبو تمام في المديح. قالها في مدح أمير المؤمنين المعتصم بالله. أبا إسحاق محمد بن هارون الرشيد، ويذكر فتح عمورية. (*)

السيف أصدق إنباءً من الكُتُبِ
في حدِّهِ الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ(١)

بيض الصفائح لا سودُ الصحائف في
متونهنَّ جلاءُ الشَّكِ والريبِ(٢)

والعلمُ في شُهبِ الأرماحِ لامعة
بين الخميسين لا في السبعة الشهبِ(٣)

(*) الديوان - ص ١٨ - وما بعدها.

(١) الكتب: يعني أقوال المنجمين. حده: حد السيف. الحد: الفصل.

(٢) الصفائح: صفحة السيف. الصحائف: الكتب.

(٣) يقول إن الحقيقة في قوة الرماح اللامعة في المعركة. وليست في النجوم اللامعة كما يدعي المنجمون.

أيـن الـروايـةُ بـل أيـن الـنجـومُ ومـا
صـاغـوهُ من زخـرفٍ فيهـا ومِنْ كـذبِ[1]

تـخـرصـاً وأحـاديـثـاً مـلـفـقـةً
ليـسـتْ بنبـعٍ إذا عـدّتْ ولا غـربِ[2]

عـجـائبـاً زعـمـوا الأيـام مجـفـلـةً
عنهـنَّ في صـفـر الأصفـارِ أو رجـبِ[3]

وخـوّفـوا الـنـاس من دهـيـاء مـظلمـةٍ
إذا بـدا الكـوكبُ الغـربي ذو الـذنبِ[4]

وصـيـروا الأبـرُجَ الـعـليـا مـرتـبـةً
مـا كـان منـقلبـاً أو غـيـر مـنـقـلبِ[5]

يـقضـون بـالأمـر عـنهـا وهـي غـافـلةٌ
مـا دار فـي فلكٍ مـنـهـا وفـي قـطبِ[6]

---

(١) يتساءل عن أقوال المنجمين أين صارت بعدما تحقق انتصار الخليفة على الروم. ويتهم المنجمين بالكذب.

(٢) تخرصاً: كذباً. غرب: قدح، أو جام.

(٣) أي أن الناس ستصاب بعجائب وبكوارث. إذا حارب الخليفة في صفر.

(٤) أي أن المنجمين خوفوا الناس من مصيبة كبيرة إذا خاض الخليفة المعركة استشهدوا على ذلك رؤية الكوكب المذنب. الذي يدل برأيهم على الشؤم والويل.

(٥) أي أنهم قالوا وخالفوا المنطق في قولهم.

(٦) يقضون: يحكمون. غافلة: نائمة ساهية.

لـو بـيـنـت قط أمـراً قـبـلَ مـوقـعـهِ
لم يخف مـا حـلَّ بـالأوثـان والصلبِ(١)

فـتـح الفـتـوح تـعـالـى أن يـحـيط بـه
نـظمٌ من الشعر أو نـثـر من الخـطبِ(٢)

فـتـحٌ تـفـتَّـحُ أبـواب الـسـمـاءِ لـهُ
وتـبـرزُ الأرضُ في أثـوابـهـا القُشُبِ(٣)

يـا يـومَ وقـعـةَ عـمـوريـةَ انـصـرفتْ
عنـكَ المنى حفَّـلاً معسـولـةَ الحلبِ(٤)

أبـقـيـت جـدَّ بنـي الإسـلام في صُـعُـدٍ
والمشـركـين ودارَ الـشـركِ في صـببِ(٥)

لـقـد تـركـتَ أمـيـرَ الـمـؤمـنـين بـهـا
للنـار يـومـاً ذليـل الصخـر والخشبِ(٦)

---

(١) يقول إن هؤلاء المنجمين يقولون عن النجوم ما لا تعرفه. وهي غافلة عن قولهم أي أنها لو أعطت سرها للناس، لبقي الناس في الجاهلية. ومن هنا يبين كذب المنجمين ويذكر أن الأصنام تكسرت وساد الإسلام الذي يبطل قول هؤلاء الناس.

(٢) فتح الفتوح: هو فتح عمورية. تعالى: ارتفع.

(٣) معناه متصل بالبيت السابق.

(٤) حفلاً: مليئة الضروع باللبن. الحلب: اللبن المحلوب. معسولة: مخلوطة العسل.

(٥) الجد: الحظ. صعد: ارتفاع. صبب: انحدار.

(٦) أي أن تلك المدينة احترقت فذل صخرها وخشبها للنار.

غـادرت فيهـا بهيم الليـلِ وهـو ضحى
يُقِلُّهُ وسـطهـا صبحٌ من الـلهـبِ[1]
حتى كـأنَّ جـلابيب الـدجى رغبتْ
عن لـونهـا أو كـأنَّ الشمس لم تغـبِ[2]
ضـوءٌ مـن الـنـار والـظلمـاء عـاكفـةٌ
وظلمـةٌ من دخـانٍ في ضحى شحـبِ[3]
فـالـشمس طـالعـة من ذا وقـد أفلتْ
والـشمسُ واجبـةٌ فـي ذا ولـم تـجبِ[4]
وحـسـنَ مـنـقـلبٍ تـبـدو عـواقـبـهُ
جـاءتْ بشـاشتـهُ عـن سـوءِ منقلبِ[5]
لم يعلم الكـفـر كم مـن أعصـرٍ كـمنتْ
لـه الـمنيـةُ بيـن الـسمـرِ والقـضـبِ[6]

---

(١) البهيم: الأسود. يقله: يطرده.

(٢) جلابيب: جمع جلباب وهو القميص الواسع الفضفاض وقصد بها شدة الظلام. رغبت عن لونها: تركته.

(٣) الشحب: المتغير اللون.

(٤) وجبت الشمس: غابت.

(٥) عواقبه: نتائجه السيئة.

(٦) المنية: الموت. السمر والقضب: السيوف والرماح.

تـدبـيـر مـعـتـصـم بـالله مـنـتـقـم
لله مـرتـقـبٍ فـي الله مـرتـغـبِ[1]

لـم يغـزُ قـومـاً ولـم ينـهض إلى بـلدٍ
إلاّ تـقـدمـه جـيش مـن الـرعـبِ[2]

لـو لم يقـد جحفـلاً يـوم الـوغى لغـدا
من نفسـه وحـدهـا في جحفـلٍ لجبِ[3]

رمـى بـك الله بـرجـيـهـا فـهـدّمـهـا
ولـو رمـى بـكَ غيـر الله لـم يـصـبِ[4]

أجبتـه مـعـلنـاً بـالسـيف منصلتـاً
ولـو أجبت بـغيـر السـيفِ لم تـجبِ[5]

حتى تـركـت عمـود الشـرك منقعـراً
ولـم تـعـرج عـلى الأوتـاد والـطُنُـبِ

---

(١) ارتغب: رغب.

(٢) أي أن الرعب يُدب في قلوب الأعداء إذا أراد المعتصم الغزو.

(٣) الجحفل: الجيش الكثير العدد والعدة. الوغى: الحرب. اللجب: الذي له ضجيج وهياج.

(٤) أي أن الله هو الذي نصرك، والنصر من عنده، لأنك اعتمدت عليه.

(٥) منصلتاً: صقيلاً ماضياً مسلولاً.

لـمــا رأى الحــرب رأي الـعيـن تــوفلسٌ

والحــرب مشتقـة المعنى من الحــربِ[١]

غــدا يُصَــرِّفُ بــالأمــوالِ جِــرْيتـهــا

فـعــزَّهُ الـبـحــرُ ذو الـتيــارِ والـعـببِ[٢]

هيهــاتَ زعــزعــتَ الأرض الــوقــور بــه

عـن غــزوِ محـتسـبٍ لا غــزو مكـتسـبِ

إنّ الأســودَ أُسـودَ الــغــابِ هـمـتـهــا

يـومَ الكـريهــةِ في المسلوبِ لا السلبِ[٣]

ولّى وقــدْ ألـجــم الــخــطيُّ مــنـطقــهُ

بسكتــةٍ تحتهــا الأحـشــاءُ في صـخبِ[٤]

تسعــون ألفــاً كــآســاد الشــرى نضجتْ

جلودهم قـبــلَ نضــج الـتيـن والعـنبِ[٥]

---

(١) يقول: إن توفلس قائد الروم رأى في هذه المعركة حرباً حقيقية لم يشهد مثلها قط.

(٢) أي لم يدفع عنه المال الهزيمة.

(٣) الكريهة: المعركة.

(٤) ولي: هرب.

(٥) إن أبا تمام أشار في هذا البيت إلى كذب المنجمين الذين زعموا أن المدينة لا تؤخذ إلاّ في الصيف بعد نضج التين والعنب.

يا ربَّ حوباء لما اجتثَّ دابرهم
طابتْ ولو ضمختْ بالمسكِ لم تطبِ[1]
خليفة الله جازى الله سعيك عن
جرثومةِ الدين والإسلام والحسبِ[2]
بصرتَ بالراحة الكبرى فلم ترها
تنالُ إلاّ على جسرٍ من التعبِ[3]
أبقت بني الأصفر المصفرِ كاسمهم
صفرَ الوجوهِ وجلَّتْ أوجه العربِ[4]

تعتبر قصيدة فتح الفتوح أو فتح عمورية من أهم قصائد المديح لدى أبي تمام، أو يعتبرها بعض النقاد من أهم قصائد المديح في الشعر العربي على الإطلاق. ومناسبة هذه الرائعة أنه في سنة ٨٣٨ م أغار امبراطور الروم تيوفلس أو تيوفيل على بلدة زبطرة، وهي الحد الفاصل بين أرض العرب والروم. وقد اشترك في هذه الغارة قوم متعددي الأجناس من روس وبلغار وجماعة من الفرس فروا من جيش بابك الخرمي بعد أن قضى المعتصم على ثورته. وعاث الجيش البيزنطي في زبطرة

---

(١) اجتث دابرهم: انقطع أصلهم.
(٢) خليفة الله: هو المعتصم.
(٣) أي أن الراحة لا تكون إلاّ بعد تعب. والمشار إليه هو الانتصار.
(٤) بنو الأصفر: الروم.

فساداً، فأهلك أهلها، وسبى، وأحرق، واسترق أطفالها ثم أحرق المدينة بكاملها. وأتى الخبر المعتصم، وبلغه ما فعله الروم من فظائع ونقل إليه أن امرأة عربية من أهل زبطرة لقيت من الغزاة شدة وتعذيباً. فصرخت وهي تساق إلى الأسر: «وامعتصماه» فتململ المعتصم وصاح: «لبيك لبيك». وتروى الأخبار أن المعتصم سأل قواده: «أي بلاد الروم أمنع وأحصن فقيل: عمورية التي لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام، وهي عين الروم، وأشرف عندهم من القسطنطينية». وهكذا كانت حادثة زبطرة سبباً في فتح عمورية، الذي كان بدوره سبباً في نظم هذه المدحية الرائعة.

وإذا نظرنا في هذه القصيدة فإننا نقف فيها على أربعة أقسام مهمة.

١ ـ المقارنة بين واقع التنجيم وواقع القوة:

ذلك أن المعتصم قبل الزحف على عمورية كان قد استشار المنجمين، فأجابوه بأن الوقت غير مناسب، فيجب انتظار فصل الصيف. لكنّ الخليفة لم يأخذ برأيهم، بل عقد العزم على المسير، ومضى. فكان النصر الكبير الذي أثبت أن أنباء السيف أصدق من أنباء كتب المنجمين. وأن العلم اليقيني في الحروب لا يكمن في النجوم وأبراجها، بل في رؤوس الرماح وشفار السيوف وملاحم البطولة. وليست روايات

المنجمين، وأقوالهم ونبوءاتهم الكاذبة سوى أحاديث ملفقة، لا حقيقة وراءها ولا قيمة لها.

٢ ـ فتح الفتوح:

وفي هذا المشهد من القصيدة أبيات تتغنى بيوم النصر الذي تتفتح له أبواب السماء، لقداسته، ولقيمته الدينية، وتعيُد له الأرض بابتهاج وفرح قلّ نظيره في التاريخ البشري. ففي هذا اليوم تحققت أماني الأمة، وآمالها الكبار، ورفع شأن بني الإسلام، فأدركوا غاية العلى، والرفعة والسمو، وحطّ من خصومهم وديارهم فجعلهم في الدرك الأسفل بين البشر. وهذه القلعة الحصينة، هي من القلاع العزيزة على قلوب الروم يفتدونها لو استطاعوا بالأباء والأمهات. لقد وقفت في وجه الأكاسرة والتبابعة وعجز الإسكندر عن تذليلها. وارتدت صروف الدهر عنها خائبة مندحرة. فكأنما الله جمع الأمجاد والعظائم ومخضها ليستخرج زبدها ويبني منه هذه القلعة.

٣ ـ حريق عمورية:

ويصف أبو تمام سقوط المدينة في يد الخليفة المعتصم، وأهوال الحرب التي قاستها والخراب الذي حلّ بها وأدركها. وذلك حين جعل فيها أمير المؤمنين الصخر والخشب طعمة للنار. ثم غادر الليل البهيم المظلم مشرقاً بنيران الحرائق كأنه الضحى أو كأنه نور الشمس «أو كأن

الشمس لم تغب». نيران الحرائق تشتعل في كبد الليل فتحيل ظلمته إلى أنوار ساطعة، وتبدد سواده حتى ليغدو نهاراً من شدة اللهب، ووهج الحرائق. ودخان كثيف أسود يتعالى من الساحات المتلألئة بفعل النيران الكثيفة، ويغيب بعيداً في أنحاء الليل. ويا له من مشهد عظيم رائع، فيه الحزن والبهجة، إذ تتراءى فيه الشمس الغائبة وكأنها لم تغب عن أرض عمورية، وما أفلت عن أنحائها بسبب الحرائق التي تأكل فيها الأخضر واليابس.

٤ ـ مدح المعتصم:

والمدح في سائر أبيات القصيدة، والمشاهد التي رأيناها تصب في إكمال الموضوع وتلوينه وإبراز معانيه. وهو الوقوف على مقدرة المعتصم وقوته. فالخليفة إنسان متدين مؤمن بالإسلام دين الله. وهو منتقم له، راغب برضوانه، لا يعمل إلاّ بما يرضاه المولى، فإرادة الله تحركه وتقوده. ولولا إرادة الله لما تحقق هذا النصر العظيم. وبعد هذا ينتقل أبو تمام إلى سبب هذه الغزوة، وإلى همة الخليفة الذي لبّى النداء سريعاً.

فهجر لذيذ العيش والحياة، وجعل تسعين ألفاً من محاربي الأعداء تنضج جلودهم قبل نضج التين والعنب، أي قبل حلول فصل الصيف الذي ذكره المنجمون. وفي هذه العبارة تهكم مزدوج يصيب الروم والمنجمين في آن معاً.

ويدعو أبو تمام للخليفة بحسن الثواب، لا لمروءته وحسب، بل لذوده عن الإسلام، والدفاع عن حياضه. وليس ذلك غريباً من رجل كالمعتصم، يدرك تمام الإدراك أن الراحة الكبرى لا يمكن أن تنال إلاّ على جسر من التعب. وإذا كان بين أيام الدهر وصروفه من قرابة، فإن يوم عمورية يؤاخي يوم بدر حين خاض النبي محمد ﷺ والمسلمون معه معركة هائلة ضد الكافرين من قريش وسائر القبائل، فكانت هذه المعركة مصيرية قررت مستقبل الإسلام. أما الروم فقد اصفرت وجوههم من جراء الهزيمة، بينما العرب كانت وجوههم تشرق بنور النصر والاعتزاز به. وقد عبر الشاعر هنا عن إعجابه بصفات الممدوح وأفعاله الرائدة في السلم والحرب.

وإذا نظرنا إلى مضمون هذه الرائعة، يتجلى لنا تعمق الشاعر بالفلسفة والعلوم التي كانت سائدة في عصره. فاستطاع بثقافته الواسعة، وسعة اطلاعه على الدراسات الفكرية في عصره أن يلقح الشعر العربي الغنائي الطابع، الوجداني المنطلق بلقاح الفلسفة ومعطيات الفكر. ليجعل من العملية الشعرية الغنائية الوجدانية عملية فكرية، مركبة، كثيفة، ذات أبعاد ومعان لم يشهد مثلها الشعر العربي في تاريخه القديم.

ويتجلى المنطق العقلي عند أبي تمام بالمقارنة بين أكاذيب المنجمين وأعمالهم الباطلة، وبين الواقع القائم.

ويسبر معاني الفكر، ويتقصى المعاني ليستخرج من طياتها ما يريد. فالمعتصم بطل عنيد، إذا سار إلى الحرب، يدب الرعب في قلوب أعدائه قبل الوصول إليهم. وتقصي المعاني يتجلى أيضاً في استخراج الراحة من العذاب والتعب. والبارز في هذا حين يجعل المنى ذات دَرٍّ كالنوق، ويجعل حلبها المعسول الطيب، فتح عمورية والقضاء على قوتها ومنعتها. كذلك الزمان الذي تشيب نواصيه، ويدركه الكبر والهرم والشيخوخة قبل أن يلحق بالقلعة الحصينة المنيعة أي ضعف او وهن.

وهذه المعاني المستحدثة والمبتكرة، المولدة والمتجددة تدل على سعة اطلاع، وقوة شخصية، وقوة تأثر وانفعال أما الأحداث. والأفكار متسلسلة مترابطة، ذات نغم سلس وجميل. يقود القصيدة إلى بناء فني متماسك ومُحكم. وإذا كان ابن الأثير قد قال في أبي تمام: «إن أبا تمام ربّ معانٍ وصقيل ألباب وأذهان، له كل معنى مبتكر، لم يمشِ فيه على أثر» فإن قوله هذا ينطبق على هذه الرائعة التي مدح فيها المعتصم.

والمطلع حكمي مأخوذ من صميم الحياة الحربية والعسكرية، ثم أتى إلى موضوعه، حيث كان للعامل العقلي الدور الكبير في تنسيق أجزاء القصيدة على عاطفة دافقة

وإحساس مرهف وخيال يركب صهوات الجمال وأفق الأبعاد الجميلة.

والعاطفة صادحة صادقة، لأن الشاعر كان منفعلاً أشد الانفعال بنصر المعتصم الذي يحبه ويكبر فيه شجاعته وحروبه. لذلك نضحت الأبيات بالعاطفة الصادقة أمام حدث، كبير ذا معنى سياسي وإنساني وديني. إنها عاطفة متعاطفة مع بني قومه، متعالية على أعدائهم، وفي المعركة نفحة القداسة تجعل منها ملحمة إسلامية، ويتصل نسبها بمعركة بدر في تاريخ المسلمين. حيث انتصر الرسول الكريم على أعدائه. وكانت بدر فتحاً للإسلام وطمأنينة للمسلمين.

ولعب الخيال دوراً بارزاً في القصيدة، ولقد اعتمد عليه أبو تمام في ابتكار الصور وتوليدها. والصور الكثيرة تدل على ذلك، فالوثبة إلى فتح الفتوح وجوه والسماء التي تفتح أبوابها لفتح عمورية، والأرض التي تلبس أزهى الثياب وكأنها عروس رائعة الجمال. كل هذه الصور تدل على نسج خيالي محلق، وقادر على الخلق والابتكار.

والملاحظ أن أبا تمام يبالغ بتصوير عظمة وقوة الخصم. لكن هذه القوة وتلك العظمة سرعان ما تتهاوى أمام ضربات الممدوح. كما أننا نجد في القصيدة شيئاً من الغموض، لأن الشاعر يأخذ بطريقة اللمح السريع في الوصف والعرض

(وصف الحريق، وصف القلعة) وقد يصل ذلك أحياناً إلى الإبهام فإذا سئل أبو تمام: «لم تقول ما لا يفهم. أجاب: ولِمَ لا تفهمون ما يقال». أما من حيث أسلوب القصيدة فالواضح فيها:

١ ـ زوال المنهجية القديمة:

إذ ابتعد عن الغزل والوقوف على الأطلال وبدأ بالحكمة.

٢ ـ التأنق في التعبير:

ويبدو ذلك في حُسْن اختيار الكلمات، كلمات مناسبة للمعنى، معبرة عنه، فيها الفخامة والقوة، وهي ذات نفس ملحمي (السيف أصدق إنباء.. رمى بك الله.. فتح تفتح أبواب السماء.. خليفة الله.. ».

٣ ـ الصناعة:

وقد بالغ فيها في استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية. فقد اعتمد على الجناس والطباق مثل (حد والحد، الجد والجد، والصفائح والصحائف). وطابق بين (الجد واللعب، والبيض والسود).

وصور البيان بارزة في القصيدة وفيها الكناية، والمجاز، والاستعارة. وقد استخدم صور البيان في أجمل وجوهها.

ولعب التشخيص في ذلك دوراً بارزاً ونجده في الأرض اللابسة أثوابها القشب، والقلعة بصورة فتاة. والرعب الذي يجعل الهيبة جيشاً من أقوياء المحاربين».

وبهذا أصبح أبو تمام صاحب مدرسة في الشعر العربي، هي الصناعة الشعرية مما جعل كثيراً من الشعراء يسيرون على طريقه وتقليده في هذا. وأصبح شعره منطلقاً لكثير من المذاهب الشعرية التي تبلورت إبان الفترة العباسية.

٢ ـ استخدام الحوادث القديمة والحديثة:

وهذا شيء واضح في شعره، إذ يستخدم الحوادث كأدوات تعينه في الوصول إلى هدفه بدقة. خاصة إذا كان لها علاقة مباشرة بالممدوح أو بآله أو بقبيلته أو بقومه. واستخدمها ليرفع بها من شأن الممدوح، ويُشهر مناقبه ويظهر محاسنه، ويبين معالمه، وشرف مقامه. وإنه لا تغفل عنه حادثة مهما كانت كبيرة أو صغيرة. يجلو أوجهها، ويصقل معانيها، ويستغلها في شعره، حتى تبدو الحوادث عنده وهجاً يمده بحياة جديدة. ودفق شعري له طعم الماضي ونكهة الحاضر.

وفي مدحه لأبي دلف العجلي يقول:

إذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بقوسها
وزادت على ما وطدتْ من مناقبِ

فـأنـتم بـذي قـارٍ أمـالـتْ سيـوفكـم
عـروشَ الذين استرهنوا قـوس حـاجبِ[١]

وفي مدحه خالد بن يزيد الشيباني ، يحاول أبو تمام أن يجلو نسبه، في أجمل إهاب، ويكسوه من المجد أغلى ثياب. ويصف ممدوحه بأجداده، وبأبيه الكريم، وإنه ورث مجد آبائه وأجداده الذين حفظوا الدين، وحفظه بعدهم، وبذل من أجله نفسه، وأعطى المال للمحتاجين. وبهذا يكون الممدوح قد جمع السماح والسماحة، والقوة والفدى. لأنه حارب اعداء الإسلام والمشركين.

مـطرٌ أبـوكَ، أبـو أهِـلَّة وائـل
مـلأ الـبـسـيـطة عُـدّة وعـديـدا[٢]
أكـفـاؤه تـلد الـرجـالَ، وإنـمـا
ولـدَ الـحـتـوف أسـاوداً وأسـودا[٣]
ورثـوا الأبـوةَ والحـظوظ فـأصبحـوا
جمعـوا جدوداً في العلى وجـدودا[٤]

---

(١) ذو قار: معركة خاضتها تميم وانتصرت فيها على الفرس.

(٢) البسيطة: الدنيا.

(٣) الأساود: جمع أسود وهو العظيم من الحيات. الحتوف: جمع حتف وهو الموت.

(٤) الجدود: جمع جُد وهو أب الأب. الجدود الثاني: جمع جد أيضاً وهو الحظ.

ومشــوا أمــام أبي يــزيــدَ وحــولــه
مشيــاً، يهــدُّ الــراسيــات وئيــدا[1]
وإذا رأيــتَ أبــا يــزيــد فــي نــدىً
ووغــىً، ومبــدىء غــارة ومعيــدا[2]
أيقنت أنَّ من الســمــاح شجــاعــةً
تُــدمي، وأن من السمــاحــة جــودا[3]

٣ ـ فخامة الألفاظ والتراكيب:

جاء أبو تمام بألفاظ وتراكيب جعلته من أهم المبتكرين والمولدين. وأحبَّ منهـا ما مـلأ الأسماع، وشغـل الفكر. واستطاع أن يحيك حولها أقوالاً وينسج آراء يستعيرها من قوى الـطبيعة المختلفـة كالمـطر والبحر والنـار والحياة والمـوت والحرب. وبعدئذٍ يحبكها ويصوغها حكمة عرفها أو اخترعها. وذلك نراه في مدحه لأبي سعيد محمد بن يوسف الثغري عندما قاد جيشاً وتغلب به على بابك الخرمي، الذي حاول أن يسطو على حصن أرشق ليستولي على مال كان المعتصم قد أرسله

---

(١) الراسيات: الجبال. ونيد: الذي فيه صوت عال، أو فيه رزانة وتأن.
(٢) الوغى: الحرب.
(٣) السماح والسماحة: البذل. وقصد الشاعر بالكلمة الأولى بذل النفس في الحرب. وبالثانية بذل المال.

للافشين. وكان النصر بتلك الموقعة لجيش المسلمين بقيادة محمد بن يوسف الثغري. وفي ذلك يقول:

وفي أرشق الهيجاء والخيلُ ترتمي
بأبطالها في جاحمٍ متوقدِ[1]

عططتَ على رغم العدىٰ عزم بابك
بعزمك عطَّ الأتحميِّ المعضدِ[2]

فإلّا يكن ولّى بشلو مقدَّد
هناك فقد ولى بعزم مقددِ[3]

رآك سديد الرأي والرمح في الوغى
تأزَّرُ بالإقدام فيه وترتدي[4]

وليس يُجلى الكربَ رمحٌ مسدَّدٌ
إذا هو لم يؤنس برأي مسدَّدِ[5]

٤ ـ احتفاظه بذاته وبشخصيته:

فهو حين يمدح ويضرب في الغلو لرفع ممدوحه لا

---

(١) أرشق: حصن للمسلمين خرج إليه بابل ليسطو على مال أرسله المعتصم للأفشين. جاحم: متوقد؛ جمر شديد الاشتعال.

(٢) أي شققت عزمه كما يشق الثوب المخطط طولاً.

(٣) إن لم تتركه مقطع الأعضاء، قتيلاً ـ فقد تركته خائر العزم. فعلولة جيوشه.

(٤) أي أن الخليفة رآك سديد الرأي قوي الجانب.

(٥) الكرب: الهم والحزن.

يتخلى عن شخصيته الذاتية ولا يذوب بممدوحه إلى حد كسر الحواجز بينهما. لكنه ينشد، ويطلب العطاء والرفد فإذا حصل عليه لا يبدي في ذلك تذللاً، ولا يأخذ بمنة. وإذا أنشد فإنما ينشد جالساً، وإذ اتفق أنه طرب الممدوح فوقف، وقف هو أيضاً. وفي أحيان كثيرة نراه يرفع نفسه فوق الممدوح أو إلى مركزه. ويرفع شعره فوق العطاء والنوال الذي يناله ويأخذه.

وبهذا يكون أبو تمام قد ميز نفسه عن الممدوح، ووقف موقف الواثق من نفسه ومن شعره. حتى كان شعره درة في سماء الشعر العربي، وقوله فتحاً جديداً في فن القول لكثرة التوليد والابتكار فيه. وغدا أبو تمام مدرسة قائمة بذاتها في هذا المجال، إذ سار على دربه جمع من الشعراء.

والتجديد في الموقف والأسلوب هو نتيجة طبيعية لعصر تتلاطم فيه شتى أنواع المعارف والعلوم، وتلاقت فيه ثقافات أمم وحضارات لها عراقة في هذا المجال. والتجديد عند أبي تمام دليل عافية للشعر العربي، الذي ألهمه قدرة التمايز بينه وبين غيره من الناس، حتى ممدوحيه.

وقصيدة أبي تمام من حيث طولها وقصرها، ونوع لغتها والتشابيه فيها والاستعارات حتى القافية، فكانت كثيراً تختلف باختلاف الممدوح. وقد مدح أبو تمام كثيراً من الناس من مختلف الطبقات الاجتماعية. مدح الخلفاء والأمراء والقواد

والأدباء. حتى بلغ عدد ممدوحيه ستين، أكثرهم من العرب. فمن المأمون والمعتصم إلى كتاب أمثال أبي زيد الذي كان كاتباً لعبد الله بن طاهر. ومدح الإمام علي بن أبي طالب وآله، ويحيى بن ثابت، والحسن بن سهل، ومحمد بن عبد الملك الزيات. ومن القواد خالد بن يزيد بن مزيد أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري وغيرهم من الأمراء ورجال الدولة عبد الله بن طاهر أبو المغيث الرافقي. ورجال الأسر الكبيرة آل وهب. أحمد بن عبد الكريم الطائي ومن الشعراء، أبو العباس نصر بن منصور بن بسام، الشاعر علي بن الجهم وغيرهم. وهذه نماذج على تفرع مديح أبي تمام في مختلف الطبقات الاجتماعية والثقافية.

ب ـ الفخر

هو من الموضوعات المهمة في الشعر العربي، وقلما نجد شاعراً في القديم والحديث إلاّ وقال في هذا الغرض. وأنشد في هذا الفن. والفخر أن يمدح الشاعر نفسه وآله أو قومه، ثم يشيد بذكرهم. وإن أكثر فخر لدى أبي تمام قيل في مصر أي قبل أن تقبل الدنيا عليه. وعندما حلّ من الحياة الموقع العالي، زادت ثقته بنفسه فانتقل بالفخر إلى المديح ينثره في عدة مناسبات، وخصوصاً إذا كان الممدوحون طائيين، كآل عبد الكريم، وآل حميد الطوسي. أو من عرب الجنوب الذين منهم بنو طيء كالقاضي أحمد بن أبي دؤاد الإيادي. وعياش بن لهيعة.

ومن فخره قوله:

وهل خاب من جذماه في أصل طيّء
عَديّ العديين القَلَمّس، أو عمرو[1]

---

(١) جذماه: من أصل طيء. أبوه وأمه كلاهما من قبيلة طيء. عدي: عدي بن نصر بن ربيعة والد الملوك المناذرة ملوك الحيرة. عدي العديين: أصل العديين المنسوبون إلى عدي هذا. عمرو: هو عمرو بن عدي أول ملوك الحيرة من المناذرة. وأمه رقاش بنت جذيمة.

لنـا جـوهـر لـو خـالط الأرض أصبحت
وبـطـنـانـهـا منـه وظـهـرانهـا تـبـرُ[١]
مقـامـاتـنـا وقفٌ على الحلم والحِجَـى
فـأفـردنـا كـهـلٌ، وأشيبـنـا حـبـرُ[٢]
إذا زينـة الـدنيـا من المـال أعـرضـتْ
فـأزْيَنُ منهـا عنـدنـا الحمـد والشكـرْ
فمن شـاء فليفخرْ بمـا شـاء من نـدىً
فـليس لـحـي غـيـرنـا ذلـك الـفـخـرُ

إنّه يفتخر بطائيته وعروبته، ويعتز بذلك اعتزازاً كبيراً. إذ يجعل الطائي مفضلاً على كلّ بني حواء. ويجعل العرب، منزهة تجلّ عما يلحق غيرها من البشر. فالكرم صفة من صفاتهم، ومثلهم الأعلى حاتم الطائي، الذي كان أجود العرب، والذي ضرب المثل بكرمه وجوده.

جـرى حـاتمٌ في حلبـةٍ منـه لـو جـرى
بهـا القـطرُ شـأواً قيل أيُّهمـا القـطرُ[٣]

---

(١) الجوهر: أصل العناصر ـ يقول أبو تمام: لو مزجنا نحن، بني طيء، بالناس كلهم لأصبح الناس كلهم أشرافاً عظماء؛ ولو كان بنو طيء، عنصراً طبيعياً ثم مزج هذا العنصر بمادة الأرض لأصبحت الأرض كلها تبراً ـ ذهباً.

(٢) الحلم: سعة الصدر والحكمة. الحجى: العقل. الحبر: العالم، الفقيه.

(٣) الحلبة: ساحة السباق. القطر: المطر. الشأو: الطلق، أي الجري إلى الغاية.

فتىً ذخر الدنيا أناسٌ فلم يزل
لها باذلاً فانظر لمن بقي الذخرُ[1]
فمن شاء فليفخر بما شاء من ندىً
فليس لحيٍّ غيرنا ذلك الفخر[2]

الطائية والعروبة نسب يفخر به أبو تمام، ولكنّ الحبَّ والأدب نسب يعلو عليه، لأن الإنسان يختار هذا ويبتكره حتى يجمعه بمن يجانسه روحياً. بينما قد يجد بين أنسبائه المفروضين عليه بالولادة من يبعدهم عنه اختلاف الفعل، كما ابتعد مشركو العرب عن مؤمنيهم، وكما ابتعد مجاورو أبي تمام عنه، وهم الأقرباء داراً ونسباً. ولهذا الغرض والهدف ألح على تجويد فعله الفني، ليكون قوله مياسم في الوجوه، وسلالم للعلى، الشعر ضيعته، لا يعار ولا يباع. والشعر نسبه، يُجوِّده ليتسامى نحو مثله الأعلى. بفعل «شوقه الأقصى» للعقل المشرف، يبدع شعره ليقترب من مبدعه. ينسى بفعل الإبداع الموت والغياب، يغيب عن كل شيء سوى اكتشاف الغيب، ومعرفة السر. ويستعين على متاعب الفراق «بإتيان الفعل» الذي يطرد الخوف والعدم. ويخيل إليه بعد الاغتراب في سبيل الفعل الأكمل أنه بلغ مرتبة من الشعر تفوق الإنس

(١) باذلاً: معطياً وواهباً.

(٢) أي أنَّ الفخر والمكارم كلها فيهم - بطيء -.

والجن، ومرتبة من الشرف الخالص تجعله أوفى الناس. قال ذلك في وصف حجة حجها، وهمس بذلك إلى ناقته.

يـكـورُك أشـعـر الـثـقـلـيـن طُـرّاً
وأوفـى الـنـاس فـي حـسـبٍ صـمـيـم(١)

وبهذا انتماؤه وفخره. شاعرية متفوقة، وشرف أصل نقي. ربط بين الشعر والوفاء إطلاقاً ولم يخصص طيئاً أو العرب في الحسب النقيِّ. فحقق التطور النسبيَّ من الخاص الضيق إلى المطلق المتعالي على الثقلين في فعل الشعر، وعلى الناس في صفاء الوفاء وشرف الأصل ونقائه.

ومن فخره بقومه ونفسه قوله:

أنـا ابن الـذين اسـتـرضـع الجـود فيهمُ
وسُـمِّيَ فـيـهـم وهـو كـهـلٌ ويـافـعُ(٢)
مـضـوا وكـأنّ الـمـكـرمـات لـديـهـمُ
لـكـثـرةِ مـا أوصـوا بـهـنّ شـرائـعُ(٣)

---

(١) يكورك: يديرك، يقودك. الثقلين: الإنس والجن. الحسب: الشرف الخالص.
(٢) استرضع الجود فيهم: بنو طيء أرضعوا الجود وربوه (فأخذ صفاته منهم).
(٣) أي أنهم احتضنوا المكرمات حتى أصبحت شرائع وقوانين.

هم استودعوا المعروفَ محفوظ مالنا
فضاع، وما ضاعت لدينا الودائع[1]
فكم شاعر قد رامني فَقَذَعْتَهُ
بشعري، فأمسى وهو خزيانُ ضارعُ[2]
كشفت قناع الشعر عن حُر وجهه
فطيرته عن فكره وهو واقعُ[3]
يودّ. وداداً أن أعضاء جسمه
إذ أنشدت شوقاً إليها المسامعُ[4]

---

(١) أورثنا أسلافنا مالاً كثيراً وأوصونا بالمعروف ـ الكرم ـ فبالغنا نحن في الكرم حتى أنفقنا جميع المال، ولكن الكرم بقي فينا بعد ذهاب المال.

(٢) قذعته بشعري: ضربته به (هجوته). خزيان: مقهور. ضارع: ذليل.

(٣) كشفت قناع الشعر عن حر وجهه: أظهرته على حقيقته. طيرته عن فكره. شتت فكره، أذهلته. واقع: باق في أرضه لا يستطيع مبارحتها لشدة ذهوله.

(٤) يضرب ذو العقل بهذه القصائد حتى يتمنى لو أنّ كل عضو في جسمه اذن حتى يسمع هذه القصائد بجميع أعضائه.

٤ - الرثـاء

فن من فنون الشعر وغرض من أغراضه. يشبه المديح إلى حد كبير، لكن المديح يكون في الأحياء، أما الرثاء في الأموات. أي أنه مديح الأموات، وفيه يذكر الشاعر الصفات، والمواقف، والحسنات للمرثي. ورثاء أبي تمام له قيمة، ومكانة في تاريخنا الأدبي، إذ يقول صاحب الأغاني: «بعد أن فرغ أبو تمام من إنشاد قصيدته في أبي دلف العجلي على مثلها من أربع وملاعب» قال له أبو دلف: أنشدني قولك في محمد بن حُميد «كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر». فأنشده فقال: والله وددت أنها فيَّ، فقال أبو تمام: «بل أفدي الأمير بنفسي وأهلي، وأكون المقدم فقال: بل إنه لم يمت من رُثي بهذا الشعر».

والرثاء عند أبي تمام رقيق العاطفة وأقل تكلفاً من مدحه. وفيه يظهر أبو تمام ذلك الإنسان الجبار على الخطوب، القوي أمام المآسي ونُوب الدهر، القاسي في الشدائد، رقيق الحس، وثيق الوداد. ثم هو لا يفقد رشده عند المصيبة مهما كانت كبيرة، وتعاظمت. ولا يشتبه رأيه فيمضي

في التفجع ويصف ما يدل على التأوه في مبالغات لا جدوى تحتها. إنه يبالغ، ولكن في استعارات وكنايات وتشابيه كما يفعل في مدحه. ثم يبقى على هدوئه فيستطيع طرق الأغراض على نحو ما ترى في بعض مدائحه. وينتابنا العجب حينما نسمعه يرثي ابنه بقوله(*):

كان الذي خفتُ أن يكونا
إنّا إلى الله راجعونا[1]
أمسى المرجَّى أبو عليٍّ
موسّداً في الثرى يمينا[2]
حين انتهى واستوى شباباً
وحقّقَ الرأي والظنونا[3]

والملاحظ أن أبا تمام لم يرتقِ في رثائه إلى حالة الفاجعة القائمة، وإلى تصوير الحنين، وعاطفة الأبوة. بل كان نشيده تقريرياً جافاً، فيه قساوة وغلاظة، وتصنع وقسوة في سبك المعاني. وكأن مخيلة أبي تمام جمدت وتجمدت أمام الحدث - الفاجعة - . فجاءت معانيه سطحية لا عمق فيها ولا جوهر كما عودنا في مدحه وفخره. وهذا ما نراه في قوله:

(*) الديوان - ص ٣٨٠ -.
(١) أي أن الموت حصل وحلّ، وهذا ما كان يخشاه، ولكن إلى الله المصير.
(٢) أبو علي: ابنه.
(٣) أي أنه مات حين أصبح شاباً قوياً.

كنت عزيزاً به كثيراً
وكنت صبّاً به ضنينا[1]
دافعت إلاّ المنون عنه
والمرء لا يدفع المنونا[2]
يدير في رجعة لساناً
يمنعه الموت أن يُبينا[3]

وفي رثائه لأبي نصر محمد بن حميد الطائي، نجد الشيء نفسه، الذي وجدناه في رثاء ابنه من عاطفة مسطحة، وقسوة في الكلمات والمعاني. وجفاء في الطبع. ومن قوله فيه:

أصَمَّ بكَ النّاعي وإنْ كان أسْمعا
وأصبح مغني الجود بعدك بَلْقَعا[4]
فتىً كلما ارتاد الشجاعُ من الردى
مَفَرّاً غداة المأزقِ ارتاد مصرعا[5]

---

(١) عزيزاً: قوياً. الضنين: البخيل.
(٢) المنون: الموت.
(٣) يدير: يحرك.
(٤) المغنى: المنزل. البلقع: الخالي.
(٥) المرتعى: موضع الرعي، ويراد به هنا الرعي خاصة. المرتع: موضع الرتع للأكل والشرب وهنا استعارة.

إذا ساء يومٌ في الكريهةِ منظرٌ
تصلّاه، علماً أن سيحسُن مَسْمَعا[1]

فإن تُرْمَ عن عمرٍ تدانى به المدى
فخانك، حتى لم تجد فيه منزعا[2]

فما كنت إلاّ السيف لاقى ضريبةً
فقطّعها ثم انثنى فتقطعا[3]

رثاء آل حميد الطوسي:

إذا خانت العاطفة أبا تمام في رثائه لابنه، وفي بعض المواقف الأخرى فإنها أسعفت في رثائه لبني حميد الطوسي. ورثاؤه لآل حميد يختلف عن سائر رثائه. وتعتبر قصائده في رثاء بني حميد من عيون قصائده في الرثاء. ويعود هذا إلى علاقة أبي تمام بآل حميد، تلك العلاقة التي كانت مبنية على صداقة وألفة ومحبة، مقياسها الإخلاص والوفاء، ولم تكن مبنية على مصلحة أو منفعة: أو لقاء عطاء وهبة. كانت إعجاباً بأعمالهم، وإكباراً لحفاظهم. ولقد كانوا لذلك أهلاً. وما قصيدته «كذا فليجل» سوى صورة لنفس محمد بن حميد،

---

(١) الكريهة: المعركة.

(٢) إن ترم: إن تقتل، إذ قتلت. عمر تدانى به المدى: عمر قصير.

(٣) لقد كنت كالسيف الذي ضرب به جسم قاس حداً، فقطع ذلك الجسم، ولكنه ارتد من شدة الضربة على نفسه ثم انكسر.

وهذا ما تشير إليه كتب الأدب. روى ابن الأثير في أخبار عام ٢١٤ هـ ما يلي: «.. كمن رجال بابك بين الصخور، فلما صار رجال محمد بن حميد الطوسي يصعدون الجبل، وصاروا على مقدار ثلاثة فراسخ، انحدر بابك إليهم فيمن معه فانهزم الناس ومروا على وجوههم، والقتل يأخذهم. وصبر محمد بن حميد مكانه وفرّ من كان معه غير رجل واحد. وسارا يطلبان الخلاص. فرأى محمد جماعة وقتالاً، فقصدهم فرأى الخرمية يقاتلون طائفة من أصحابه، فلما رآه الخرمية قصدوه لما رأوا عليه من حسن هيئته، فقاتلهم وضربوا سيفه، ثم أكبوا عليه فقتلوه». هذه الحادثة آلمت أبا تمام، فأنشد قصيدته التي استحقت الخلود في عالم الرثاء وهي(*):

كذا فليجِلَّ الخطبُ وليفدحِ الأمرُ
فليس لعينٍ لم يفض ماؤها عذرُ[1]
توفِّيتِ الآمالُ بعد محمدٍ
وأصبحَ في شُغلٍ عن السَّفرِ السَّفْرُ[2]

نرى الفاجعة تنحب في نفس أبي تمام في هذه القصيدة. فالخطب جلل، والأمر خطير وثقيل. ولا عذر

(*) الديوان ـ ص ٣٥٥ وما بعدها.

(١) يجل: يعظم. يفدح: يثقل ويصعب.

(٢) السفر: قطع المسافة. السفر: المسافرون.

للعيون إذا لم تبكِ في هذا المصاب. لأن الرجل القائد قد مات، وبموته انقطعَتْ آمال الفقراء بالنوال والعطاء.

وما كانَ إلاَّ مالَ مَنْ قلَّ مالُهُ
وذخراً لمن أمسى وليس له ذخرُ

وما كان يدري مجتدي جودِ كفِّهِ
إذا ما استهلَّتْ أنَّهُ خُلِقَ العُسرُ[1]

فتىً دهره شطرانِ فيما ينوبُهُ
ففي بأسِهِ شطرٌ وفي جوده شطرُ

والجود إذا لم يقرن بالبطولة لا معنى له، والمرثي فارس ميدان، صلب العود، قوي الشكيمة. مات بين الطعن والضرب على عادة الفرسان الأقوياء. وسقط بعدما فُلَّ ومات مضرب سيفه. ولم يبقَ لديه آلة أو وسيلة يدافع بها عن نفسه. وكان باستطاعته الهرب، لكنه أبى، وأبت شهامته ذلك. لأن في ذلك عار يبقى على الزمن والأيام، والعار بالنسبة له هو الكفر بعينه.

فتىً مات بين الطعنِ والضربِ ميتةً
تقوم مقام النصرِ إنْ فاته النصرُ

وما ماتَ حتى مات مضرب سيفِهِ
من الضرب واعتلّتْ عليه القنا السمرُ

---

(١) المجتدي: الطالب الجدوى أي العطية.

وقد كان فوتُ الموتِ سهلاً فردَّهُ
إليه الحفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوعرُ[1]
ونفسٌ تعافُ العارَ حتى كأنَّما
هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفرُ[2]

ومن أجمل ما قاله أبو تمام في الرثاء ثلاثة أبيات قالها في القائد الطائي جعفر الخياط، هي:

رَحِمَ الله جعفراً، فلقد كا
ن أبياً، وكان شهماً رحيماً
مثّل الموتَ بين عينيه والذ
لَ، فكُلاً رآه خَطْباً عظيما
ثم ثارتْ به الحميَّةُ قِدْماً
فأمات العدى، ومات كريما

وكثيراً ما يذهب أبو تمام إلى ضرب الأمثال، واستجماع الحكمة في الرثاء. كقوله في محمد بن الفضل الحميري. حيث تبدو الحكمة مشبعة بروح التجربة التي اشتقت معالمها من الأيام والزمن الذي لا يرحم. إذ «أن الدهر لا يبقى على

(١) الحفاظ: الذب عن المحارم، والمواظبة على العمل. الوعر: الصعب.

(٢) تعاف: تكره. الروع: الحرب.

حدثانه». وقد أصم أذنيه، بحيث أنه لم يسمع نداء تفجع النفوس الحزينة. والقدر لا يرحم وإنه لازم حياة الإنسان منذ البدء، وأصبح سُنّة لا يقدر المخلوق ردّها.

ريبُ دهرٍ أصمُّ دونَ العقابِ
مرصدٌ بالأوحالِ والأوصابِ[1]
جفَّ درُّ الدنيا فقد أصبحتْ تكـ
ـتالُ أرواحنا بغيرِ حسابِ[2]
لو بدتْ سافراً أهينتْ ولكن
شغفَ الناسَ حسنُها في النقابِ[3]
إنَّ ريبَ الزمانِ يُحسنُ أن يهـ
ـدي الرزايا إلى ذوي الأحسابِ[4]

وتبدو الحكمة في رثائه ابنين لعبد الله بن طاهر، ماتا في يوم واحد:

إن الفجيعةَ بالرياض، نواضراً
لأجلّ منها بالرياض، ذوابلا

---

(١) ريب دهر: صرفه. المرصد: الرقيب. الأوحال: الأطيان. الأوصاب: الأمراض والأوجاع.
(٢) جفّ: نشف ويبس. الدرّ: اللبن. تكتال: تأخذ وتتولى الكيل بنفسها.
(٣) شغف: الحب والوجد: النقاب: الغطاء على الوجه.
(٤) الأحساب: جمع حسب وهو الشرف والكرم ونحوهما.

لهفي على تلك الشـواهـد منهمـا

لـو أُمْهِلت حتى تكـونَ شمـائـلا

وإذا رأيـتَ فـي الـهـلال نـمـوّه

أيقنت أنْ سيصيـرُ بـدراً كـامـلا

والواقع أن أبا تمام لم يرثِ من الذين مدحهم إلّا خالد بن يزيد بن مزيد بقصيدة طويلة مطلعها:

نَـعَـاءِ إلـى كـلِّ حـيٍّ نـعـاءِ

فتَى العـربِ اختط ربـعَ الـفـنـاءِ[1]

أصبنـا جميعـاً بسهـم النضـالِ

فـهـلّا أصبنـا بسـهـم الـغـلاءِ[2]

وكان رثاؤه في بعض ممدوحيه أيضاً أمثال إسحٰق بن أبي ربعي، وعبد الحميد بن غالب، وآل بني حميد. وقد عزى أبا سعيد الثغري بولد له، وقال:

أمحمدُ بنُ سعيدٍ إن أُسى الفتى

فيهـا رواءُ الـحـرِّ يـوم ظـمـائـهِ[3]

---

(١) نعاء: اسم فعل للأمر بمعنى انع فلاناً أي أظهر خبر موته. اختط الربع: رسم بناءه.

(٢) النضال: الرمي. الغلاء: ارتفاع السهم ومجاوزته الحد.

(٣) الأسى: جمع أسوة وهي الحالة أو القدوة التي بها الإنسان في اتباع غيره من السار والضار، وما يتأسى به الحزين أي يتعزى. الظماء: العطش.

أنت الـذي لا تـعـذلُ الـدنـيـا إذا
ما النائباتُ صفحنَ عن حوبائِه[1]
لـو كـان يـغـنـي حـازمٌ عـن واعظٍ
كنت الغنيُّ بحزمه وذكائِه[2]
إنّـي أرى تـربَ الـمـروءةِ بـاكـيـاً
فأكاد أبكي معظِماً لبكائِه

أما الذين رثاهم من غير هؤلاء الذين لم يمدحهم فبضعة عشر شخصاً، منهم أقارب بعض الممدوحين. ولم يرث أبو تمام المعتصم بقصيدة مستقلة، بل أدخل رثاءه في تهنئة ابنه الواثق بالخلافة. وفي ديوانه أبيات رثى فيها بعض آله وإخوانه. فإذا قرأتها لم تشك قط في أنّ الشاعر تسيل نفسه لوعة وأسى، وإن الأسى كان في نفسه في قرارتها. أما رثاؤه لغيرهم فكان قسم منه يشبه ما تقدم، ويشِفّ عن عاطفة متأصلة، وقسم منه يشف عن عاطفة مكتسبة. تكاد تعرفها من قوله في رثاء خالد بن يزيد بن مزيد.

وكنّا جميعاً شريكَيْ عِنان
رضيعَيْ لَبانٍ، خليلي صفاء

(١) الحوباء: النفس.
(٢) الحازم: الذي يضبط الأمر، ويحكمه ويأخذ فيه بالثقة.

وكـنـتُ أراه بـعـيـن الـجـلال

وكـان يـراني بعـيـن الإخـاء

وكثير من شعره في الرثاء على هذا النمط. وقد أجاد في أكثر مراثيه إظهار الأسى وإن لم يكن يحسه إحساسه في رثاء ولده الوحيد. أما إنه «كان يتخذ موت الميت سبباً ليعرب عن أحزان نفسه لأنه من أولئك الذين صحب الحزن نفوسهم».

د - العتاب

لقد اختلف عتاب أبي تمام عن عتاب غيره من الشعراء. وإنّه لم يعاتب إلاّ على تأخر رفدٍ. لذلك كانت معظم معاتباته في أولئك الذين مدحهم. ويتبع في عتابه طريقة مدحه. فهو خشن القول، والعتاب بحاجة إلى نعومة، وفظ في سوقه، والعتاب يحتاج إلى مناسبة. ومن هذا قوله في عتاب أبي دلف.

أبا دُلَفٍ لم يبقَ طالبُ حاجةٍ
من الناسِ غيري والمحلُّ جديبُ[1]
يسرُّكَ أنّي أبتُ عنكَ مخيَّباً
ولم يُرَ خلقٌ من جداكَ يخيبُ[2]
وإني صيرتُ الثناء مذمَّةً
وقام بها في العالمين خطيبُ[3]
فكيف وأنت السيد العالم الذي
لكلِّ أناسٍ من نداهُ نصيبُ[4]

---

(١) الجديب: الماحل.

(٢) أبت: رجعت المخيب: المحروم. الجدا: العطية.

(٣) أي أنه صير المديح هجاء، وهنا نوع من الهجاء المبطن.

(٤) نداه: كرمه وخيره.

وبعد هذا يصف الشاعر صعوبة الإقامة في فناء أبي دلف، والتي تجاوزت الشهور الخمسة، بحيث بقي منتظراً النوال والثواب، ويلقى الإهمال من أبي دلف.

أقمت شهوراً في فنائك خمسةً
لقيً حيثُ لا تهمِي عليّ جنوب[1]
فإن قلتُ ما أمّلتُ فيك فإنني
جديرٌ وإلّا فالرحيلُ قريب

ويبدو التذلل والطلب في عتابه القاضي أحمد بن أبي دؤاد. حيث تبرز قسوة اللغة، والأمر الذي لا يصح في مثل هذه المواقف والأغراض. وهو شيء غير مألوف في مخاطبة رجال الدولة. وعتابه هنا يحمل في طياته طلباً واحداً وهو المال. وهذا ما يبدو واضحاً في قوله:

إعلم وأنت المرءُ غيرَ معلَّمِ
وافهمْ جُعلتُ فداكَ غيرُ مفهَّمِ[2]
إنَّ اصطناعَ المرءِ ما لمْ تولِهِ
مستكملاً كالبُردِ ليس بمُعلَمِ[3]

---

(١) الفناء: الدار. اللقى: المطروح. لا تهمي: لا تسيل. الجنوب: الريح والمراد هنا مطرها من باب المجاز.

(٢) يطلب من صاحبه أن يفهم وأن يعلم، وهذا الخطاب لا يليق بواحد مثل أحمد بن أبي دؤاد.

(٣) اصطنع المرء: اختاره لنفسه. توله: أي تصنع اليد معروفاً. البرد: الثوب. المعلم: المنقوش.

والشكرُ ما لم يستتر بصنيعةٍ
كالخطِّ تقرأُهُ وليس بمعجم(1)
وتفنُّني في القولِ إكثار وقد
أسرجتُ في كرمِ الفعالِ فألجم(2)

وفي عتابه الحسن بن وهب. يبرز عامل طلب المال والنوال كذلك. إذ أنه يشبه الحسن بدلو لا قيمة له، إذا كانت فارغة. وقيمتها بالصلات والهبات التي تهبها للناس. وفي هذا على الواهب أن يفرق بين الناس كما يفرق الجوهري بين الجواهر. وعليه أن يدرك أيضاً، أن الظلمة عكس النور، والنور لا يختلط بها.

لا يحمدُ السجلُ حتى يُحمدَ الوَذَمُ
ولا تـرثُّ بغير الواصل النعمُ(3)
وفي الجواهر أشباه مشاكلةٌ
وليس تمتزج الأنوار والظلمُ(4)

(1) المعجم من الخط: المنقوط.
(2) أي أن الشاعر تفنن في القول وأكثر منه، ولم يأته شيء من كرم أبي دؤاد القاضي.
(3) السجل: الدلو العظيمة إذا كان فيها ماء. الوذم: سيور بين آذان الدلو والعراقي ترث: تبلي. الواصل: المعطي الصلة. النعم: جمع نعمة وهي الهبة.
(4) أي أن الجواهر متشاكلة، كما أنَّ الأنوار لا يمكن مزجها مع الظلمة.

ومن خلال المعاني الواردة نشعر بتذلل رهيب عند أبي تمام. وغايته المال. إنه يطلب وكأنه يصلح موقفاً، ويوثق صلة منقطعة. ويثبت أن الحب عنوان الإنسان يبقى حتى ولو بعد الإنسان عن أخيه الإنسان نتيجة حادثة. ولا ينسى أبو تمام أن يذكر أبا الحسن بالمودة التي كانت بينهما في الماضي. ويتمنى أن تبقى الصلة والمودة بينهما قائمة على أساس الكرم، وجود أبي الحسن منهمر عليه، دافق كالسلسبيل لا يحده حد، ولا يقف أمامه سد.

وربَّ خطبٍ رمى إلفين فانصدعا
على المودةِ والأسباب تلتئم[1]
يصونُ قلبيهما عهدٌ يجدّدُهُ
طولُ الزمانِ ولا يغتاله القدمُ[2]
ذمَّا العقوقَ وردَّا فضلَ حلمهما
وراجعا الوصلَ واستثناهما الكرمُ[3]
إنَّا قريعانِ من قلبين ردُّهما
إلى الصفاء هوىً بادٍ ومكتتم[4]

(١) خطب: مصيبة. إلفين: صديقين.
(٢) يغتاله: يهلكه.
(٣) العقوق: القطع.
(٤) القريع: المغلوب أو المختار. مكتتم: مستتر.

فعتابه على ما وضح لنا، منفّر يزيد من الصد، ولا يبقى على الود. إنه عتاب جاف، فيه قسوة وغلظة، وسوء مخاطبة، وسوء نتيجة.

والواقع إننا نجد هذين البيتين الجميلين في كل عتابه. قالهما في أبي سعيد الثغري.

إنــمــا الــبــشــرُ روضــةٌ فــإذا كــا
ن بــبــذلٍ فــروضــةٌ وغــديــرُ[2]
فــاقــسمْ الــلحظ بيــنــنــا إنَّ فــي الــلحـ
ـظ لــعنــوانَ مــا يُــجنُّ الــضــمــيــرُ[1]

---

(١) البشر: البشاشة وطلاقة الوجه، السرور بالذين نلقاهم.

(٢) جنّ: ستر.

هـ - الوعيد والهجاء

احتل الهجاء مرتبة خطيرة في الشعر العربي. واعتمد فيه الشاعر على الجوانب السلبية المتعلقة بالمهجو. وتكون هذه الجوانب مادية أو معنوية. ويصل الشاعر بهجائه إلى نبش التاريخ والماضي، والتعيير بالحسب والنسب، والأصل والعرق والجنس واللون. ويختلط في هذا المجال الفردي والجماعي، المادي والمعنوي: لهذا كان يتجنبه الخلفاء والأمراء بأعطياتهم وسخائهم للشعراء.

وقبل الهجاء يعاتب الشاعر الممدوح، تذكرة بصلته، واستدراراً لريه. فإذا قنط من نواله انقلب إليه يهجوه. إلا أن نفراً من الشعراء يميلون أول الأمر إلى الوعيد والإنذار قبل أن يلجوا في الهجاء، ويقطعوا كل صلة بينهم وبين الممدوح، ويفعلون ذلك في ثنايا قصيدة في المدح أو العتاب.

ولقد تناول أبو تمام بهجائه نحو عشرين شخصاً، فيهم ستة أشخاص كان قد مدحهم، فهم عياش بن لهيعة، وقد اختص باثنتي عشرة قطعة قال واحدة منها بعد موته. ومنهم أبو المغيث الرافقي، هجاه بخمس قصائد. وله قطعة في مالك بن

طوق. وصالح بن عبد الله الهاشمي، وإسحق بن إبراهيم المصعبي. وقيل عرض بهجاء أحمد بن حميد ولم يهجه لمكان أسرته. وفي حياته اصطدم أبو تمام بشعراء كثيرين في مصر والعراق. بعضهم مشهور كدعبل، ومحمد بن أبي يزيد. وبعضهم أقل شهرة. وهنالك قصائد أخرى في أشخاص مختلفين. لكنه لم ينل منالاً قريباً أو بعيداً في هجائه. فبعض شعره في هذه الناحية عادي، وسائره أدنى مرتبة. إنه لم يتبع طريقاً معروفاً يصل به إلى غايته. فهو لم يعمد إلى «ما يترك هجاءه أعلق بالقلب، وألصق بالنفس، وأسرع إلى الحفظ». ولا بلغ به من الحقيقة والمرارة ما يوجع حقاً. وإن كان قد أفحش وأقذع في بعضه. لذلك نجد كثيراً من هجائه أشبه بالمديح. ومن هذا هجاؤه عتبة بن أبي عاصم فقد جاء هجاؤه لعتبة بأوصاف عادية سطحية، فعتبة بنظره إنسان لئيم يصول إذا بَعُدَ عنه عدوه، وهو كالبعير الناهق، كالراعي الأبله الذي أتلف ضأنه، وهو إنسان لا يستقر على حال، يتنقل من مكان إلى آخر حسب مصلحته وأهوائه. وكأن هذه الصفة جاءته بالوراثة من آبائه.

وكذا اللئيم يصولُ إن نأتِ النوى
بعدوِّهِ ويذوب ساعةَ يصدقُ
عَيرٌ رأى أسد العرين فراعَهُ
حتى إذا ولّى تولّى ينهقُ

أو مثـل راعي السـوء أتلف ضأنَهُ
لـيـلاً وأصبح فـوق نـشـزٍ ينـعـقُ
وتـنـقُّـلٌ مـن معشـرٍ في مـعشـرٍ
فـكـأنَّ أمَّـك أو أبـاكَ الـزئـبـقُ

ولا يقف عند هذا الحد من الهجاء. بل يتعداه ليصل إلى أم المهجو. ويستبيح أخلاق الناس وينشر أعراضهم. حيث يصف أم عتبة بالفسوق في الدنيا، وكذلك فعلها في الآخرة.

وفسـوق والـدةٍ حَسَت جـرع الـردى
وأظـنُّـهـا فـي اللُّحـدِ أيـضـاً تفـسـقُ

وتعتبر هذه القصيدة من أعلى طبقات الهجاء لديه. ولكنها غير جديرة ولا تصلح في معرض هجاء. فهي لا تثير الإحساس ولا الشعور. وفيها من الصناعة والنظم ما يبعدها عن ثورة النفس الغاضبة، التي تقود المعاني، وتحملها كشظايا لهب تبقى مع الأيام، وتترافق مع الزمن.

ومن هذه المعاني قوله في هجاء عبد الله الكاتب:
يـكـفـيـك حـزنـاً أنَّ عـقـلك ذاهـبٌ
يـبـكـي علـيـك وإن جـهـلك يـضـحـكُ

لا تفتكنْ على الكؤوس بشربها
فهي التي باتت بعقلك تفتكُ

ويتطاول عليه في هجائه. فيصفه «بابن البغي».

إياك أرضي يا ابن البغي لقد
رضيتُ بعد التقريب بالعنقِ

وقال في أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد، قولاً يستشف منه أنّ محمداً امتنع عن عطاء أبي تمام. ونتيجة لذلك حمل عليه الشاعر، ونعته باللؤم، وجعل الزمن الذي أوصل ابن أبي دؤاد إلى تلك المرتبة، ألأم منه. وإنه غاضب على الأيام والإنسان. غاضب على الزمن الذي رفع البعض وأبقاه حيث هو، على أبواب الخلفاء والأمراء والقواد والكتاب.

فما أنت اللئيمُ أباً ولكن
زمانٌ سُدتَ فيه هو اللئيمُ
أتطمعُ أن تُعدَّ كريم قوم
وبابكَ لا يطيفُ به كريمُ
كمنْ جعلَ الحضيضَ له مهاداً
ويزعم أنَّ إخوته النجومُ

ويندر في ديوانه هجاء يطويه على تهكم صحيح، ومعانٍ قريبة وصور بارعة مثل قوله في عياش بن لهيعة:

صدّق مقالته إنْ قال، مجتهداً

لا والرغيف، فذاك البُرُّ من قسمِهْ[1]

وإن هممتَ به فافْتِكْ بخبزته

فإنها قطعةٌ من لحمه ودمهْ

قد كان يعجبني، لوِ أنَّ غَيرته

على جَرادقه كانت على حُرمهْ[2]

وقال يعرض ببعض بني حميد، لم يصرح بهجائه لمدحه لهم، لأنه طائي. وفي القصيدة شيء يشبه الحكمة، وخوف من التصريح بالهجاء. فهو لا يجاري ـ بعض بني حميد ـ بأعمال السوء، وأفعال دنية كي لا يصبح مثلهم. وإنه حر يجتنب المخازي، وهو حرٌ لا يغدر، ووفيٌ لا يطعن بالظهر.

وإن تجاربه في الحياة كثيرة، أخذ منها، ونهل من معينها. حتى رأى العيش والحياة الخيرة لا تكون إذا ذهب من المرء حياؤه.

إذا جاريتَ في خلقٍ دَنِيّاً

فأنتَ ومنْ تجاريه سواءُ

(١) البر: بالضم، القمح. يقول: عياش بن لهيعة يقدر البر (القمح، الطعام) قدراً عظيماً، ويقدسه حتى أنه يقسم به.

(٢) الجرذمة: الرغيف. الحرم: بضم ففتح، جمع حرمة بالضم: الأهل، الزوجة، المرأة.

رأيتُ الحرَّ يجتنب المخازي
ويحميه عن الغدر الوفاءُ
لقد جربتُ هذا الدهر حتى
أفادتني التجاربُ والعناءُ
فلا والله ما في العيش خيرٌ
ولا الدنيا إذا ذهبَ الحياءُ

ويذكر تغير إخوانه، فيصاب بحزن عميق، ولم يستطع أن يألف الناس بعد ـ أحمد ـ حتى بدا وكأنه باكٍ من الشكوى، لأن الربيع في عينيه لا جمال فيه، بالرغم من ألوانه الحسنة البهية.

غاب والله أحمدُ فأصابتـ
ـني لهُ قطعةٌ من الأحزانِ
وتخلَّفتُ بعدهُ في أُناسٍ
ألبسوني صبراً على الحدثانِ
ما لنور الربيع في غير حُسنٍ
ما لهم من تغيُّرِ الألوانِ

ونراه يذم مدينة بغداد، ويمدح سرّ من رأى، فبغداد نعاها الناعي وبكاها الباكي، لما فيها من حروب. حتى دبّ اليأس في قلبه منها، لأنها بنظره صارت كعجوز شمطاء،

لا حياة فيها، ولا دم يسري في عروقها. والبديل عنها مدينة كالشمس هي سرّ من رأى.

لقد أقام على بغداد ناعيها فليبكها لخرابِ الدهر باكيها
كانت على ما بها والحرب موقدةٌ والنارُ تطفئ حسناً في نواحيها
ترجى لها عودةٌ في الدهر صالحةٌ فالآن أضمرَ منها اليأسَ راجيها
مثلُ العجوز التي ولّت شبيبتُها وبانَ منها جمالٌ كان يحظيها
لزّت بها ضرّة وهزاءٌ واضحةٌ كالشمس أحسنُ منها عند رائيها

هذه بعض نواحي هجاء أبي تمام. وله من الإقذاع بضاعة غير قليلة. لكن هذه البضاعة حذفت من الديوان لما فيها من إقذاع يمس الآداب.

و - الوصف

الوصف كلمة عامة تندرج تحتها معان كثيرة، ولذلك صدق ابن رشيق حين قال: «الشعر كله إلّا أقله راجع إلى باب الوصف». وأصل الوصف في اللغة الكشف والإظهار. ولهذا يصح أن نقول إنّ كلّ ما يقع تحت الحواس يمكن وصفه، بل إنّ أحوال النفس والأفكار غير المحسوسة يمكن للإنسان وصفها أيضاً. على أننا لا نريد توسيع دائرة الوصف إلى هذا الحد في هذا الموضع، بل نرى الاقتصار على وصف الأشياء المحسوسة أما غير المحسوسة نتركها جانباً.

وما دام الوصف بهذا الشمول، فإن من الطبيعي أن يكون من أول أبواب الشعر نشأة في كل زمان ومكان. ومن الطبيعي أن يتغير ويتطور مع الأيام والعصور، والبيئات والأماكن. وقد لاحظ ذلك ابن رشيق فنراه يقول: «وليس بالمحدث من الحاجة إلى أوصاف الإبل ونعوتها والقفار ومياهها، وحمر الوحش والبقر والظلمان والوعول ما بالأعراب وأهل الجاهلية. لرغبة الناس في هذا الوقت عن تلك الصفات».

ورغبة الناس عن تلك الأوصاف معناها تطور الـذوق العام، وتطور ما يقع عليه الحس. فكل ما يتعلق بالصحراء أصبح بعيداً عن الحياة العربية في العصر العباسي خاصة في الحواضر والمدن ذات القصور العـالية والبسـاتين الفيحاء. والتي تجلت في مظاهرها الحياة المادية في أجمل صورها وأبهى معانيها. لهذا كان من الطبيعي أن يهتم بالجانب المادي، من حضارة بني العباس.

والوصف عند أبي تمام يقسم إلى قسمين:

١ ـ الوصف الخالص للوصف.

٢ ـ الوصف الذي جاء في ثنايا قصائد المديح.

وحينما تجيش نفس أبي تمام بصورة من صور الطبيعة، أو بمنظر من مناظـرها الجميلة، يخـرج الوصف من نفسـه ممزوجاً بعناصر من الشكوى والفخر وما إليهما. فوصفه في هذه الحالة هو وصف خالص للوصف، فيه صدق النقل من الطبيعة وعناصرها. وصدق العاطفة المأخوذة بتلك المشاهد والمناظر.

فمن ذلك قوله في غمامة ممطرة:

كـالـشيـعـة التـفّتْ عـلى النـقيـبِ

آخـذة بـطاعـة الـجـنـوبِ

لـمـا بـدتْ لـلأرض من قـريـب
تـشـوقـت لـوبلهـا الـسـكـوبِ

تـشـوق الـمـريض لـلطبـيـبِ
وطـرب الـمحب لـلحـبيـبِ(١)

لـذيـذة الـريـق مـع الـصبيـب
كـأنـمـا تهـمى عـلى الـقلوبِ(٢)

وقد وصف مطراً صادقاً، أي محملاً بالماء في سنة مجدبة قاسية، أوصلت الناس إلى محنة رهيبة. وبعد تحمل مشقات الشدة والجدب جاء الماء حتى لو أنك عصرت الصخر لعُصِر، وصار ماءً.

ألا تـرى مـا أصـدقَ الأنـواءْ
قـد أفـنـتِ الـحـجـرةَ والـلأواءْ

---

(١) تشوق: اشتاق، مال برغبة شديدة. الوبل: المطر الغزير. السكوب: المنصب باستمرار.
(٢) لذيذة الريق: طيبة، تشربها الأرض بسرعة. مع الصبيب: مع كثرة نصابها وهطولها. كأنما تهمى: تسقط. على القلوب: تدخل الاطمئنان على القلوب لثقة القلوب بأن تلك الغيمة ستقضي على القحط وتأتي بالخصب.

فلو عصرت الصخر صار ماءً
من ليلةٍ بتنا بها ليلاءَ
إنْ هي عادت ليلة عداء
أصبحتِ الأرضُ أذن سماء

وقد أجاد أبو تمام في وصفه الغيم والمطر والرياض. وجاء وصفه سلساً فيه كثير من الدقة والروعة، وأحسن تصوير الظواهر الطبيعية، حتى كادت صوره تنطق بالحياة، وتنبض بالحيوية.

الروضُ ما بين مغبوقٍ ومصطبحِ
من ريقِ مكتفلاتٍ بالثرى دُلُحِ (1)
دُهْمٌ إذا ضحكت في روضةٍ طفِقَتْ
عيونُ نوَّارِها تبكي من الفرحِ (2)

وقد سحره منظر الغيم والمطر والسحاب. فأشاد فيه

---

(1) الروض: أرض مخضرة بأنواع النبات المغبوق: الشارب عشية. المصطبح: الشارب صباحاً. المكتفلات: ذوات الأكفال أي الإعجاز. الثرى: الندى. والدلح: جمع دلوح وهي السحابة الكثيرة الماء.
(2) الدهم: السود. النوار: الزهر الأبيض.

وصفاً. ولونه بألوان نفسه، حتى غدا جميلاً بهي المنظر. وإنه أحس بدبيب الحياة في مفاصلِ الثرى، حينما نزل المطر، وصعدت ثورة الزهور، وبرزت روعة الربيع بأزهاره وألوانه من جراء المطر المنهمر. الذي يحمل الحياة لبني البشر، ولكلِّ أحياء الوجود. وكان وصفه متسلسلاً بدأ بالغمام وانتهى بالمطر.

ساريةٌ لم تكتحل بغمْضِ
كدراءُ ذاتُ هطلانٍ محضِ(١)
تمضي وتُبقي نِعماً لا تمضي
قضت بها السماءُ حقَّ الأرضِ(٢)

أما في وصفه المطر.

يا سهمُ للبرقِ الذي استطارا
باتَ على رغمِ الدجى نهارا(٣)
حتى إذا ما أنجدَ الأبصارا
وبلاً جهاراً أو ندىً سرارا(٤)

---

(١) السارية: السحابة تسري ليلاً. لم تكتحل بغمض: أي لم تنم. الكدراء: المغبرة اللون.
(٢) النعم: جمع نعمة وهي ما أعطاه الله العبد.
(٣) استطار: انتشر. الدجى: الظلام.
(٤) السرار: السر.

آضَ لـنـــا مـــاءً وكـــان نـــاراً
أرضى الثـــرى وأســخطَ الغـبــارا[1]

وإذا كان اهتمامه بالظواهر الطبيعية كبيراً، فإنه لم ينس الصفات المعنوية التي تجمع البشر، وتؤالف بين قلوبهم. ويعتبر أن القربى بحاجة إلى مودة وإلفة. وإن القربى تكون حتى بين صديقين بعيدين. وإذا أقبلت المودة على الأقرباء على الإنسان أن يبسط لها جناح الود، ويمد يده لملاقاتها بسعادة وإلفة ومحبة.

لا خـيـرَ في قُـــربى بغـيـرِ مـــودّةٍ
ولَــرُبَّ مــنـتــفــعٍ بــودِ أبــاعــدِ
وإذا الــقـــرابـــةُ أقـبــلـت بـمـــودةٍ
فــاشــدد لهـا كفَّ القبــولِ بســاعـدِ

ويصف حاله ويشكو الدهر بنيسابور، تلك المدينة التي حلّ بها بعيداً عن أهله وإخوانه، لحيث الوحدة، إذ لا حميم ولا صديق يواسيه ويقف بجانبه.

صــريـعُ هــوىً تُغــاديــه الهمــومُ
بـنـيـســابــور لـيـس لــه حـمـيـمْ[2]

---

(١) آض: صار. الثرى: التراب الندي.

(٢) الحميم: الصديق.

غـريـبٌ ليس يـؤنـسُـهُ قـريـب
ولا يـأوي لـغـربتِـهِ رحـيـمُ[1]

ويتذكر أيام عزه بالشام، بلد النعيم، التي كان فيها منيع الجانب، محترماً، رفيع المركز والمكانة.

فـقـد فـارقـت بـالـغـربـي داراً
بـأرض الشـام حفَّ بـهـا النـعيـمُ[2]
وكـنـتُ بـهـا الـمـمـنـعُ غـيـرَ وَغْـدٍ
ولا نَـكِـدٍ إذا حـلَّ الـعـظـيـمُ[3]

لكن روعة الوصف تتجلى عنده في وصف المعارك والحروب. وهناك تشعر أن شعور أبي تمام يغمرك ويستولي عليك فتتصل نفسك بنفسه، ولا بِدَعَ أن وصف أبو تمام معركة عمورية وأجاد، فلقد شاهدها بنفسه. وإذا قرأت له وصف الخيل في الحرب، أيقنت أنك ترى الجياد تخوض الغمار أمام عينيك، وقد ضاقت حومة الوغى بالفرسان والموت يتناول الأبطال غير آبه بنتيجته.

---

(١) يأوي: يرق ويرحم.
(٢) حف بها: أحاط.
(٣) الوغد: الأحمق الضعيف. النكد: القليل الخير.

وإذا كــان عــارض الـمــوت سـحّــا
خضيــلاً بــالــروى أجشّ هــزيمــا[1]

في ضِــرام من الــوغى واشــتـعــال
تـحـسـب الجـو منهمـا محمــومـا

واكـتـسـت ضمـرُ الـجيـاد الـمـذاكي
من لبــاس الهيجــا دمــاً وحميمــا[2]

في مُكــرٍ تـلوكـهــا الـحـرب فـيــه
وهــي مُـقــوَّرة تـلوك الـشـكـيـمــا[3]

وله أبيات جميلة في وصف القلم، جاءت في ثنايا قصيدة يمدح فيها محمد بن عبد الملك الزيات.

لــك الـقلمُ الأعـلى، الــذي بشــاشـتــه
تُصــاب، من الأمر، الكُلى والمفـاصـلُ[4]

---

(١) العارض: السحاب المقبل. عارض الموت: هول المعركة. سحا: غزيراً متصلاً. خضلاً: مبتلاً (المعركة تحمل معها موتاً أكيداً للذين فيها) أجش: خشن الصوت. الهزيم: صوت الرعد الشديد (يقصد: هذه المعركة تحمل إلى المحاربين الخوف الشديد مع الموت الأكيد).

(٢) الجياد: جمع جواد، الحصان. الضمر: النحيلة.

(٣) مكر: مجال الهجوم في المعركة. تلوكها الحرب فيه: تعلكها (الخيل تحارب في مكان ضيق والسلاح يعمل فيها تقطيعاً فكأن الحرب تعك المتحاربين بأضراس لها).

(٤) الشباه: الجد. أصاب الكلى والمفاصل: أحكم الإصابة.

لُعَابُ الأفاعي القاتلاتِ لُعابُه
وأَرْيُ الجنى اشتارتْهُ أيدٍ عواسلُ[1]

له ريقةُ طلٍّ، ولكنَّ وقعَها
بآثاره في الشرق والغرب، وابلُ[2]

فصيحٌ إذا استنطقتَه وهو راكب
وأعجم إن خاطبتَه وهو راجل[3]

إذا ما امتطى الخمس اللطافَ وأُفرغتْ
عليه شِعابُ الفكر وهي حوافل[4]

أطاعته أطرافُ القنا وتقوّضت
لنجواه، تقويض الخيام الجحافل[5]

إذا استعزز الذهنَ الذكيُّ وأقبلت
أعاليه في القرطاس وهي أسافل[6]

---

(١) اللعاب: الريق. الأري: العسل. استثار: استخرج العسل خاصة.

(٢) ريقه طل: قليل الرطوبة (بالحبر) ولكن أثره وابل: مطر شديد.

(٣) إذا ركب الأصابع (تناولته الأصابع). كان فصيحاً (كتب الإنسان ونظم الشعر الخ).

(٤) صوت لتناول القلم بالأصابع وتزاحم الأفكار في رأس الأديب وهو يكتب.

(٥) الأوامر التي تصدر مكتوبة إلى الآفاق تطيعها الرماح (نبذ الحرب أو تنتهي)، وبها تتقوض (تنهزم). الجحافل: الجيوش.

(٦) إذا استعان القلم بالذهن ثم انحنى على الورق.

وقــد رفــدتــه الـخـنـصـران وسـدّدت
ثــلاثَ نــواحـيــه الـثـلاثُ الأنــامــل[1]

رأيــتَ جـلـيـلاً شـأنُـه وهــو مــرهــفُ
ضَنى، وسميناً خـطـبُـه وهـو نـاحـل[2]

(١) رفد: سند.

(٢) رأيت أمره عظيماً مع أنه هو قصبة دقيقة (رفيعة من السقم).

ز ـ الغـزل والنسيب[1]

التغزل أو النسيب أو التشبيب من أقـدم الفنون الشعرية عند العرب وأكثرها شيوعاً لاتصالها الوثيق بالطبيعة الإنسانية. فالحب أو محاولة الحب لغة عالمية وميل فطري في كل بيئة. ووصف المحبوبة والتغني بجمالها إحساس تلقائي. وقد أدت الحياة المترفة في العصر العباسي إلى ازدهار فن التغزل ازدهاراً لم يعرفه الشعر العربي من قبل، بحيث تغيرت صورة النسيب القديم تغيراً يكاد يكون تاماً، ويقول شوقي ضيف في ذلك: «إن الشاعر كان يقصد في القطعة التي يعالجها إلى تصوير حبه وما يلقى فيه من وصب وعذاب، وبذلك كان تغزله معنوياً أكثر من النسيب القديم، فالشاعر يعنى بحكاية خواطره، وقلما عني بوصف المرأة وصفاً حسياً».

(١) يقول ابن رشيق في العمدة «النسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد وأما الغزل فهو إلف النساء والتخلق بما يوافقهن وليس مما ذكرته في شيء فمن جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ. وقد نبه على ذلك قدامة وأوضحه في كتابه نقد الشعر» ـ العمدة ـ ٢ ـ ٤٩.

وقد جاء في اللسان أن الغزل حديث الفتيان والفتيات أو اللهو مع النساء بينما التغزل التكلف لذلك، وهذا هو المعنى المراد به فناً شعرياً.

وشعر التغزل خضع في هذا العصر لتأثير الغناء، حيث أصبحت موسيقى الشعر في التغزل أكثر رقة ولطفاً من موسيقى الشعر القديم. ويقول شوقي ضيف: «إن المغنين والمغنيات كانوا يضطرون مع ألحانهم أن يطيلوا ويمددوا في بعض حروف تفعيلات البيت، وأن يقصروا أو يهمسوا في حروف أخرى من هذه التفعيلات فأحدثوا زحافات وعللاً كثيرة في شعرهم، واضطر الشعراء أن يقبلوا على الأوزان الخفيفة السهلة مثل الوافر والخفيف والرمل والمتقارب والهزج ويجزئوا الأوزان الطويلة المعقدة، بل الأوزان السهلة البسيطة أيضاً».

والغزل عند أبي تمام هو أدنى فنونه الشعرية، وأقل مرتبة عن مستوى مديحه، إذ «لم يكن لأبي تمام حلاوة توجب له حسن التغزل وإنما يقع له التافه اليسير في خلال القصائد». وإذا كانت الصنعة قد أكسبت مديحه فخامة، فإنها قد أفسدت وصفه وغزله ونسيبه. وأفضل ما في غزله تلك التشابيه والاستعارات. أما العاطفة الصادقة، فهي بعيدة عن غرضه ومرماه. وأحسن الغزل ما أثار العاطفة لا ما أجهد العقل.

وله من الغزل نوعان: مؤنث ويقتصر على مطالع قصائد المديح عنده، ومذكر وقد أفرد له قصائد خاصة. وهو بهذا يتكلف الغزل، ولا يتغزل. وجوهر الغزل عنده شهوة حارقة، يود أن يطفئها لدى أي حبيب.

والملاحظ أن أبا تمام في غزله لم يذكر أسم واحدة من حبيباته. لكننا نجد بعض أسماء في غزله المذكر. وغزله الذي أتى في ثنايا قصائد المديح فيه صناعة وتكلف. حتى ولو ورد منه بعض الأبيات الجميلة، وبشكل عارض كقوله:

السالبات امرأ عزيمته
بالسَحر والنافثات في عُقَدِهْ[1]
لبسن ظلين: ظل أمن من الد
هر وظلاً من لهوه ودَدِهْ[2]

أو كقوله:

كأنّ الدمع يُنثر من نظام
على تلك المحاجر والخدود[3]
تريدين المزيد وليس عندي
وراء محل حبك من مزيد

ويصف لوعة الحب، وحسرته التي أصعدت إلى عينيه

---

(١) النافثات في لعقد: الساحرات. كانت الساحرة تمسك خيطاً بيدها وتتمنى ما تشاء أن يصيب المسحور من ضرر ثم تعقد في الخيط عند كل أمنية لها عقدة وتنفث فيها (تنفخ عليها).

(٢) الدد: اللعب.

(٣) يشبه الدموع المنحدرة على الخدين كاللؤلؤ ينتثر إذا انقطع النظام. الحجر: موضع العين من الوجه.

الدموع، والنار تشتعل في أحشائه من كثرة النحيب وتباريح الهوى.

زفـراتٌ مـقـلقـاتٌ
أسـعـدتـهـا الـعـبـراتُ

وعـويـل مـن غـليـلٍ
أضـرمتـهُ الـحـسـراتُ

ونـحـيـبٌ ووجـيـبٌ
ودمـوع مُـسـبـلاتٌ

وتـبـاريـح اشـتـيـاق
وهـمـوم طـارقـاتٌ

وفـؤادٌ مـسـتـهـامٌ
جـنَّـنـتـهُ الـوجـنـاتُ

وقال في حسن المحبوب، وجماله، بعض الأبيات الرقيقة، حيث أصبح الحسن يستمد حسنه من وجه حبيبه، وهو قمر على غصن. إلاّ أن هذا الحسن والجمال شركا الشاعر في حزن وكآبة، حتى سقم جسمه من حوادث الحب الكثيرة التي آلمته وجعلته في حالة من الترقب والأرق.

الـحسـن جـزءُ من وجـهـكِ الحسـنِ
يـا قـمـراً مـوفـيـاً عـلى غـصـنِ(١)

(١) الموفي: المشرف.

إنْ كنتَ في الحسنِ واحداً فأنا
يا واحدَ الحسنِ واحدُ الحزَنِ
كلُّ سقامٍ تراه في أحدٍ
فذاك فرعٌ والأصلُ في بدني
كوائن الحبِّ قبل كونك في
أفئدة العاشقين لم تكنِ[1]

وله أيضاً:

تفَّاحةٌ جُرِحَت بالدّرِ من فيها
أشهى إليَّ من الدنيا وما فيها[2]
حمراءُ في صفرةٍ عُلّت بغاليةٍ
كأنها قُطِفَت من خدِّ مهديها[3]
جاءت بها قينةٌ من عند غانيةٍ
نفسي من السقم والأحزان تفديها[4]
لو كنتُ ميتاً ونادتني بنغمتها
لكنتُ للشوقِ من لحدي أُلبّيها

---

(١) كوائن الحب: حوادثه.
(٢) الدر: اللؤلؤ، كنى به عن الأسنان.
(٣) علت: طيبت مرة بعد أخرى. الغالية: اختلاط في الطيب.
(٤) القينة: الأمة. الغانية: الغنية بحسنها وجمالها عن الزينة.

ونختتم هذا الفصل بهذه الأبيات الجميلة التي يقول فيها:

البيتُ جرَّعني نقيعَ الحنظلِ
والبين أثكلني وإن لم أثكلِ[٢]
ما حسرتي أن كدتُ أقضي إنما
حسراتُ قلبي أنني لم أفعلِ[١]
نَقِّلْ فؤادك حيثُ شئت من الهوى
ما الحبُّ إلاّ للحبيبِ الأولِ
كم منزلٍ في الأرض يألَفهُ الفتى
وحنينُهُ أبداً لأولِ منزلِ

---

(١) الحنظل: نبت كالبطيخ ثمره شديد المرارة.

(٢) أقضي: أموت.

ج ـ الحكمة

الحكمة مذهب في الشعر، ينظم فيه صاحبه بتأثيره نظرة فلسفية للكون وحقائق الأشياء فيه بحكم ثقافته أو تكوينه الفكري، وتجاربه الإنسانية. وقد تطور شعر الحكمة في العصر العباسي، نتيجة تلاقي الحضارات في البيئة العربية الإسلامية. وأول مظاهر ذاك التطور أن شعر الحكمة لم يبق خطرات متفرقة في ثنايا القصائد كما كان في الجاهلية. ولكنه أصبح موضوعاً لقصائد خاصة به يقصد إليها الشاعر قصداً وبذلك أصبحت الحكمة من الموضوعات الثابتة في هذا العصر.

وجاءت الحكمة عند أبي تمام للدلالة على سعة علمه، وكثرة تجواله وسفره، وللدلالة أيضاً على ثقافة عصره.

أما سعة علمه، واطلاعه على تراث الأولين، وآراء الشعراء والنقاد في عصره حملاه إلى استخراج أجمل الصور وأحسنها. ومن أجل ذلك اتهمه الآمدي «بسرقات كثيرة». والحق أن أبا تمام حاول أن يزيد المعاني التي رآها وأخذها عمقاً وأصالة. وتم له ذلك حين كسى شعره بحلة الصنعة التي

ابتكرها. وقد أحسن وأجاد في كثير مما فعل، حتى جاءت بعض حكمه تشبه المثل السائر.

ومن حكمه الجياد المشهورة قوله في جوهر الحياة الإنسانية، إذ لا يجتمع نقيضان، مال ومعرفة في إنسان واحد.

فلم يجتمع شرق وغرب لقاصد
ولا المجد في كفِّ امرىء والدراهمُ

ومنه قوله أيضاً وفي نفس المعنى السابق:

ما ابيض وجه المرء في طلب الغنى
حتى يسوِّد وجهه في البيد

وحكمته في العاشق الذي يرى كل شيء يضيره إذا بعد عنه الحبيب.

لا شيء ضائر عاشق، فإذا نأى
عنه الحبيب فكل شيء ضائره

ومن أقواله الحكمية هذه الأبيات التي استقيناها من بعض قصائده.

وإذا تأملت البلاد رأيتها
تُثرى كما تثرى الرجال وتُعدم

* * *

إني تأملتُ النوى فوجدتها
سيفاً على صبر الهوى مسلولا

* * *

ومـمـا كـانـت الـحـكـمـاء قـالـت

لـسـان الـمـرء مـن خـدم الـفـؤاد

* * *

مـا أب مـن أب لم يـظفـر بـحـاجتـه

ولـم يغب طـالب بـالـنجـح لـم يخـب

إذا غُـنـيـت بـشـأو قـلت إنّـي قـد

أدركـتـه أدركـتـنـي حـرفـة الأدب

* * *

لا تـنكـري عـطل الكـريم مـن الغنى

فـالـسـيـل حـرب لـلمـكـان الـعـالـي

ويعتبر هذا النوع من الحكمة أعلى أنواع حكمه. ومن حكمه الرائعة الجميلة، التي بلغت المرمى بسهولة ويسر، قوله:

نـقّـلْ فؤادك حـيـث شئـت من الـهـوى

مـا الـحـب إلاّ لـلحـبـيـب الأول

كـم منـزل في الأرض يـألـفـه الـفتـى

وحـنـيـنـه أبـداً لأول مـنـزل

أمـا حكمه المتـأثرة بثقـافة العصـر، فكثيرة الصنعـة والتكلف، لا يفهمهـا إلاّ النحـاة والفقهـاء، أو العلمـاء أو الفلاسفة. ومن أجل ذلك كان يتهم بقول ما لا يفهم كقوله في الخمر مضمناً إياه إشارة نحوية.

خـــرقـاء يلعبُ بـالعقـول حبَـابهــا
كـتــلاعـب الأفـعــال بـالأسـمــاء

وقال في العطاء، وأشار في ذلك إلى آي من القرآن الكريم، من سورة الشورى.

الــود لــلقـــربـى، ولـــكـن عـــرفـــه
لـــلأبـــعــد الأوطـــان دون الأقـــرب

وهذا النوع من الحكمة، يعتبر مجاراة لزمن شهد من تلاطم الثقافات ما شهد، إذ اختلطت فيه الثقافة العربية الإسلامية، بالفارسية واليونانية، والهندية، وحاول أبو تمام أن يقيد معرفته لها بأبيات شعره، فكان يضربها أمثالاً، ويصوغها حكمة، ولكنه لم يوفق في كثير من الأحيان.

لكن الحكمة المفضلة عنده، تلك التي استقاها من تجربته الشخصية. والتي جاءت في ألفاظ فصيحة، وتراكيب سهلة. حتى اكتسبت سيرورة على الزمن، وبقاء مع الأيام.

ومنها قوله:

وإذا أراد الله نــشــر فــضــيــلةٍ
طُـوِيَتْ، أتــاح لهـــا لـســانَ حَســود
لولا اشتعال النار فيما جاورت
ما كان يعرف طيبَ عرف العودِ[1]

* * *

(١) العود: خشب ذكي الرائحة ـ له رائحة شديدة ـ.

وطــول مقــام المــرء في الحي مخلق
لــديــبــاجتيــه، فــاغتــرب تـتجــدَّدِ

فــإني رأيت الـشمس زيــدت مـحبــة
إلى النــاس أنْ ليست عليهم بسـرمـدِ

* * *

أولـى البـريــة حــقــاً أن تـؤاســيــه
وقت الســرور الذي واســاك في الحـزنِ

ومنه قوله في الحياة التي لا تعطي الإنسان ما يريد، وإنها ترفع من تشاء، وتبقي في الضعة من تشاء.

ينــال الفتى من عيشــه وهــو جــاهــل
ويُكــدي الفتى في دهـره وهــو عــالمُ

ولـو كـانت الأرزاقُ تـأتي على الحجى
هـلكْنَ، إذن، مـن جهـلهن الـبهــائـمُ

ويفرق في حكمته بين الغبي والمتغابي، حتى ولو كان سيد قومه.

لـيس الـغبـي بــسيــد فــي قــومــه
لـكنَّ سـيــد قــومــه الـمـتـغــابـي[1]

* * *

لا تنكــري عــطل الكــريم من الغنى
فــالسيــل حــرب لــلمكــان الـعــالي

---

(١) المتغابي: المتظاهر بالغباء وهو شديد الذكاء.

وتنـظري خَبب الـركـاب ينُصّـهـا
محيي القـريض إلى مميت الـمـال[١]
إن الـكـرام إذا مـا أيـسـروا ذكـروا
من كـان يألفهم في المـوطن الخشنِ[٢]

وفضل الشاعر في حكمته ما أشار إليه الجرجاني في مقدمته في كتاب «الوساطة» وحيث بدأ بالكلام على التنافس والتحاسد والتحامل فلم ينكرها. بـل عدهـا من أسباب مـا يكشف عن الفضل ويلفت النظر إليه. ثم ذكر قول أبي تمام، من غير أن يذكر أبا تمام:

وإذا أراد الله نـشـر فـضـيـلـه
طُـويت أتـاح لهـا لسـان حسـودِ

وهنا أوجز أبو تمام المعاني السالفة الذكر كلها في بيت واحد.

---

(١) لا تستغربي أن يكون الكريم فقيراً، فإن السيل يجرد رؤوس الجبال من التراب ويجمع ذلك التراب في الأودية. شبه الرجل الكريم بالجبل العالي بين قومه وبين الناس ثم شبه السائلين وطالبي الحاجة بـالسيل لكثرتهم وتتابعهم. ولكن انتظري الغني لي ولك حينما تخب (تركض) بي الركاب (الإبل). بنصها: يجهدها في السير والسفر.
محيي القريض: باعث الشعر (أقدر الشعراء، يقصد الشاعر نفسه).
مميت المال: باذل المال بكثرة.
(٢) الموطن الخشن: أيام الضيق والفقر.

وهكذا يحول أبو تمام بعض شعره إلى حكمة، تتناقلها الأيام. وهذا لا يتم إلاّ بالعزم والحزم، والثقافة والعلم، والإرادة والمحبة، والتفكير والاستنتاج، فيجعل كلماته صدى الأيام والآلام مرّة، وصدى التجربة مرة ثانية. وهنا يكمن الخلود، الذي يكلف صاحبه المتاعب، حتى تبدو صورة الحكمة عنده وكأنها تحتضن الأشياء، وهي بالنهاية شمول متصل بالبقاء.

ط ـ الزهد

رأى أبو تمام الناس في عصره يتخبطون في مذاهبهم الدينية، ومقايسهم الجدلية وأدرك أن فعلهم سيقودهم «إلى هوة لا الماء فيها ولا الخمر» لذلك شركهم في «عماهم وارتيابهم» وسلك سبيلاً غير سبيلهم تحيذ به عن «هوة الردى» ومزالق الارتياب والعمى، وتقوده إلى «خالقه».

والخالق عنده رمز للمبدع القادر، والتقرب إليه رمزٌ للتعالي والتجاوز والتقدم نحو الأعلى. لذلك عمل كل ما في وسعه للتقرب من خالقه، وعمد في ذلك إلى التوسل بالنبي العربي ﷺ وأبناء بنته ليقترب من خالقه.

الخالق هو الإله، وهو الله سبحانه، يخافه ويرجوه. فلولاه لما ساغ له عذب ولا طاب له عيش، ولظل باكياً على نفسه. وله في هذا قصائد كالتي يقول فيها:

أصوّتُ بالدنيا وليستْ تجيبُني
أحاول أن أبقى وكيف بقائيا..؟
أخاف إلهي ثمَّ أرجو نوالَه
ولكنَّ خوفي قاهر لرجائيا

ولـولا رجـائي واتكـالي على الـذي
تـوحّـدَ لي بـالصُّـنع كهـلاً ونـاشيـا
لمـا سـاغ لي عـذبٌ من الماء بـاردٌ
ولا طـابَ لي عيش ولا زلـتُ بـاكيـا
على إثـر مـا قـد كان منّي صبـابـة
لـيـالـيَ فـيهـا كـنـتُ لله عـاصـيـا
فـإنّـي جـديـرٌ أن أخـافَ وأتّـقـي
وإنْ كنتُ لم أشـركْ بذي العـرش ثانيا
وأدّخِـرَ الـتقـوى بـمجـهـود طـاقتي
وأركبَ في رشـدي خِـلافِ هـوائيـا

إنه في هذه القصيدة يتحرك بين الدنيا والبقاء. والدنيا رمزٌ لكل قريب أدنى. والبقاء رمزٌ لكل بعيد أعلى. الدنيا زوال وانحلال وغرور، والبقاء خلود وإنشاء وحقيقة. لذلك فزع من الدنيا وأهلها إلى الخالق الأحد الذي رعاه صغيراً وكبيراً وطيب عيشه هنا، ويرجو أن يجد بقاءه في ظلال رضاه وعفوه هناك. ونلاحظ توحّد الله بالصنع، والالحاح على الصنع لأنه فعل الخلق من الخالق، لأنه الفعل الذي شغف به أبو تمام حتى جعله وطناً ونسباً، ويجعله هنا ديناً.

توحد الله بالصُّنع لأبي تمام في صغره وكبره، فعليه أن

يوحده فلا يشرك به ثانياً وأن يخلص له صدراً ونية، وأن يفكر بلقائه غداً. وفي هذا يحدث نفسه ويقول:

وأخـلِصْ لـديـن الله صـدراً ونـيّـةً
فـإنَّ الـذي تُخفيه يـومـاً سيـظهـرُ

وقـد يـسترُ الإنسـانُ بـاللفظ فِعلَه
فَيُظهرُ منـه الطرفُ مـا كـان يستـرُ

تـذكَّرْ وفكِّـرْ في الـذي أنتَ صـائرٌ
إليـه غـداً، إنْ كنتَ ممّنْ يـفكـرُ

هذا ما يمكن أن يقال في مثل هذه الدراسة عن أبي تمام. ذلك الشاعر الذي ملأ عصراً، وترك بعده دوياً، شاعر مثّل الإسلام والقومية أجمل تمثيل، ووقف ديوانه على جلاء عظمتهما في شعر متين. مرصوف متقن، يدل على براعة لم يظفر بها شاعر قبله.

الخصائص الأدبية في شعره

إنّ أبا تمام ساعر عبَّ من معين الثقافة ما جعله سيد فعل القول في عصره. لكن بعض النقاد عابوا عليه بعض معانيه وقالوا: «إنها مأخوذة بعنف». لكن الواقع يخالف هذا القول. والحقيقة أنه كان يفكر بطريقة صحيحة. ولكنها بعيدة عن مألوف الرجل العادي.

قال ابن رشيق: «وإنما سمي الشاعر شاعراً لأنه يشعر بما لم يشعر به غيره، فإذا لم يكن عنده توليد معنى، ولا اختراعه.. أو صرف معنى عن وجه إلى وجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة، ولم يكن له إلاّ فضل الوزن، وليس بفضل عندي، مع التقصير..» ثم قال: «وإنما السبق والشرف في المعنى».

وقد حمل الآمدي على أبي تمام وخطأه في قوله:

فلويتُ بالمصروف أعناق المنى
وحَطَمْت بالانجاز ظهرَ الموعدِ

فزعم استعارة الظهر للموعد قبيحة. والمعنى المستخلص من حطم الظهر رديئاً، ولا أرى إلاّ أن أبا تمام

تخيل أن ينجز الإنسان وعداً قبل أن يقطعه ثم يستغني عن الوعد مرة واحدة، فيعطي المتصفين حالاً، فلا يجري الوعد على لسانه. وكل ما في نقمة النقاد منه أنه نظر إلى المعنى من حيث لم يتصور الناس أن ينظروا إليه من قبل.

والحقيقة أن أبا تمام كان يوغل في طلب معانيه. ولقد أنصف كتاب أمراء الشعر في نقل رأي ابن رشيق «وأما حبيب (أبو تمام) فيذهب لي حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التضبيع المحكم طوعاً أو كرهاً، يأتي للأشياء من بعد، ويأخذها بقوة».

ويراد بذلك هيامه بالغريب من المعاني التي يحتاج في تفهمها إلى تأمل ومشقة.

وأبو تمام قوي الفكر غوّاص على المعاني. وفي هذا يقول المبرد: «لأبي تمام استخراجات لطيفة ومعان طريفة، وهو صحيح الخاطر، حسن الانتزاع (للمعاني وللصور الشعرية). وأبو تمام يقول النادر والبارد، وما أُشبّهه إلاّ بغائص يخرج الدّرّ والمخشلبة»(١).

وأهم ما يلفت النظر في شعر أبي تمام، بُعْدُ تشابيهه واستعاراته، وقد تفوق على أقرانه في هذا، حتى نفر منه بعض الناس، لأن الناس بطبيعتهم وطبعهم يميلون إلى ما ألفوا،

---

(١) المخشلبة: خرز أبيض يشبه اللؤلؤ.

ويصدون عما لم يعرفوا. وفي ذلك يقول الآمدي: «ولو اقتصر من القول على ما كان مَحْذُوًا حَذْوَ الشعراء المحسنين.. لظننته كان يتقدم عند أهل العلم بالشعر أكثر الشعراء المتأخرين» وعلى هذا انتقد له «رقيق حواشي الحلم». لأنه ما علم أحداً من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقة، وإنما يوصف الحلم «بالعِظَمِ والرجحان والثقل والرزانة». وانتقد له:

من الهيفِ لو أنّ الخلاخلَ صُيرت
لها وُشُحا جالت عليها الخلاخل

فقال: «وهذا الذي وصفه أبو تمام ضد ما نطقت به العرب». لأن العرب تجعل الخلاخل ضيقة في الأرجل، وتحب النساء البدينات. وأخذوا على أبي تمام من استعاراته قوله:

فضربتَ الشتاء في أخدعَيْهِ
ضربةً غادرته قَوْداً رَكوبا

فالآمدي لا يعترف للشتاء بأخدعين «عُرقا العنق». وإنما هما للبشر أو للأحياء على الأقل. ويقول الأستاذ ـ ضومط ـ معتمداً على فهم الآمدي: «إنه (أي أبا تمام) يصور الشتاء بعيراً صعباً وقد ركبه الممدوح فعاصى عليه في سيره فضربه ضربة شديدة في كل من أخدعيه فنزل وأطاع؛ وإن الاستعارة

بالكناية في البيت بعيدة عن المألوف، ويصعب على الذهن تصورها».

وقد عاب الجرجاني أيضاً استعارة أبي تمام في قوله:

شاب رأسي، وما رأيتُ مشيبَ الـ
رأس إلّا من فضل شيب الفؤاد

وقال عنه: «وهذا مما استقبح من استعاراته». يقصد استعارة الشيب «للقلب».

ويبرز فضل أبي تمام في كثرة اختراعه وابتكاره. وهذا ما أشار إليه ابن رشيق في قوله: «وأكثر المولدين معاني وتوليداً، فيما ذكر العلماء أبو تمام».

والملاحظ في شعره كثرة التوليد والابتكار، واعتداده بشعره. حيث نظر إلى نفسه فرأى قوة فكره ورأيه فقال:

فاسمع مقالة زائر لم تشتبهْ
آراؤه عند اشتباه البيد

وقوله:

ليت شعري ماذا يريبك مني
ولقد فُقت فِطنة الفيلسوف

والذي يلفت النظر في شعر أبي تمام مقدرته في صنع مطالعه، وتخلصه وخواتمه. لأن نفراً من النقاد رأى أن تكون مطالع القصائد بارعة جداً، لأن المطالع أول ما يقرع الأذن من

القصيدة. ويسمون ذلك براعة الاستهلال وحسن الابتداء. ويرى هؤلاء أن المطلع إذا كان حلو الألفاظ واضح المعنى متين التركيب ترك في النفس أثراً باقياً قد لا يمحى. ومطالع أبي تمام بارعة خصوصاً في الحوادث الكبيرة مثل:

السيف أصدق إنباءً من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

* * *

من سجايا، الطلولِ ألا تُجيبا
فصوابٌ من مقلتي أو تصوبا

* * *

الحق أبلج والسيوف عوارِ
فحذارِ من أسد العرين حذار

وكان تخلصه من غرض إلى آخر في القصيدة حسن وجميل، ويتم ذلك عنده بشكل طبيعي. ومن جميل تخلصه قوله:

يقول في قَومَسٍ صحبي وقد أخذت
منّا السُرى وخُطى المهرية القُودِ[1]

---

(١) أخذت منا: أنهكتنا، أتعبتنا. السرى: السفر ليلاً. وخطى: خطوات سير وسفر. المهرية: النياق من المهرة في جنوب شبه الجزيرة العربية. القود: جمع قود، وقوداء: الإبل الذلولة المعودة على السفر.

أمطلعَ الشمسِ تبغي أم تَؤمُّ بنا؟
فقلت: كلا ولكن مَطْلِعُ الجود![1]

ويرى الجرجاني أن أبا تمام قد ذهب في التخلص كل مذهب واهتم به كلَّ اهتمام.

واللافت للنظر في ديوان أبي تمام غرابة الألفاظ. إذ كان يحب الغوص في القديم، وفي اللغة التي كانت تدور في أدب البادية والصحراء. إذ كان من الذين يحبون الاقتداء بالقدماء. حتى «أظهر التعجرف، وتشبه بالبدو، ونسي أنه حضري متأدب، وقروي متكلف». فمن ألفاظه الغريبة الخشنة قوله:

قد قلت، لما اطلخمّ الأمرُ وانبعثت
عَشْواءُ تاليةٌ غبْساً دهاريسا

* * *

فعنيقها، يعضدها ووشيجُها
سَعدانُها، وزميلها تنَومها

وهذا ما دفع أبا هلال العسكري للقول: «كان أبو تمام يتبع وحشي الكلام ويدخله في شعره».

والترديد الممل نلاحظه في بعض أبيات أبي تمام مثل:

---

(١) أمطلع الشمس تبغي: لماذا هذا الإمعان من لا يغال في السفر.

المجـد لا يـرضى بـأن تـرضى بـأن
يـرضى المؤمـلِ منـك إلاّ بـالـرضـا

فاسلَمْ، سَلِمْتَ من الآفات، ما سلمتْ
سـلامُ سـلمى، ومـهمـا أورق السـلم

إن ترديد هذه الألفاظ في بيت واحد مكروه. وإن كان عدد منها يؤدي معاني مختلفة.

وكلمة أخيرة ننقلها عن صاحب الأغاني، إذ يقول عن أبي تمام: «وله مذهب في المطابق هو كالسابق فيه جميع الشعراء، وإن كانوا قد فتحوه قبله، وقالوا القليل منه، فإنّ له فضل الإكثار فيه، والسلوك في جميع طرقه».

وحقيقة تقال إن أبا تمام سيد المطبوعين، وإمام أهل الصنعة.

نماذج من شعره:

وقال يمدح محمد بن عبد الملك الزيات:

لـهـانَ علينـا أن نقـولَ ونـفـعـلا
ونذكرَ بعضَ الفضـلِ منكَ فتفضـلا[1]

أبـا جعـفـرٍ أجـريـتَ في كُـلِّ تلعـةٍ
لنـا جعفـراً من سيبِ كفَّيـكَ سلسـلا[2]

فكم قـد أثـرنـا من نـوالـكَ معـدنـاً
وكـم قـد بنينـا في ظـلالـك معقـلا

رددتَ المنى خضـراً تثنَّى غصـونهـا
علينـا وأطلقتَ الـرجـاءَ المكبَّـلا[3]

لقـد زدتَ أوضـاحي امتـداداً ولم أكـن
بهيمـاً ولا أرضى من الأرضِ مجهـلا[4]

---

(١) لهان: أي والله لقد هان.

(٢) التلعة: ما ارتفع من الأرض وما انهبط. مسيل: الماء. الجعفر: النهر. السلسل: الماء العذب.

(٣) المكبل: المقيد.

(٤) الأوضاح: جمع وضح وهو الغرّة في جبهة الفرس والتحجيل. المجهل: المفازة التي لا اعلام فيها.

ولكن أيادٍ صادفتني جسامُها
أغرُّ فألفت بي أغرَّ محجّلا(١)
إذا أحسنَ الأقوامُ أن يتطاولوا
بلا جِنَّةٍ أحسنتَ أن تتطوّلاً(٢)
تعظمتَ عن ذاك التعظُّمِ منهم
وأوصاك نبلُ القدرِ أن تتنبلا(٣)
تبيتُ بعيداً أن توجّهَ حيلةً
على نشب السلطانِ أن تتأولا(٤)
هززت أميرَ المؤمنينَ محمداً
فكان ردينياً وأبيض منصلا(٥)
فما أن تبالي إذ تجهّز رأيَهُ
إلى ناكثٍ أن لا تجهّز جحفلا(٦)
ترى شخصَهُ وسطَ الخلافةِ هضبةً
وخطبتَهُ دون الخلافةِ فيصلا(٧)

---

(١) ألفت: لقيت.

(٢) يتطاولون: يتكبرون. وتطول: تمتن.

(٣) النبل: الفضل، والذكاء. تنبل: تفضل.

(٤) النشب: المال.

(٥) الرديني: الرمح. الأبيض: السيف.

(٦) الجحفل: العسكر.

(٧) الهضبة: الجبل. الفيصل: الأمر الفاصل بين الحق والباطل.

ومن قوله في الفخر:

ليسحجَ بجودٍ مَنْ أراد فإنَّهُ
عوانٌ لهذا الناسِ وهو لنا بكرُ[١]

جرى حاتمٌ في حلبةٍ منه لو جرى
بها القطرُ شأواً قيل أيُّهما القطرُ[٢]

فتى ذخرَ الدنيا أناسٌ فلم يزل
لها باذلاً فانظر لمن بقي الذخرُ[٣]

فمنْ شاءَ فليفخر بما شاء من ندىً
فليس لحيٍّ غيرنا ذلك الفخرُ[٤]

جمعنا العلى بالجود بعد افتراقها
إلينا كما الأيام يجمعها الشهرُ[٥]

بنجدتنا ألقتْ بنجدٍ بعاعها
سحابُ المنايا وهي مظلمةٌ كدرُ[٦]

---

(١) يسحج: من سحجت الدابة إذا جرت دون الجري الشديد أو من السحج بمعنى الإسراع.

(٢) الحلبة: ساحة السباق. القطر: المطر. الشأو: الطلق، أي الجري إلى الغاية.

(٣) باذلاً: معطياً واهباً.

(٤) أي أن الفخر كله فيهم.

(٥) الجود: الكرم.

(٦) ألقى السحاب بعاعه: أي ألقى كل ما فيه من المطر.

بكـلِّ كـميٍّ نـحـرُهُ عـرضـةُ الـقـنـا
إذا اضــطرمَ الأحشاءُ وانتفـخ السَّحْرُ[1]

يُشَـيِّـعُـهُ أبـنـاءُ مـوتٍ إلـى الـوغى
يُشَيِّعُهُـمْ صبـرٌ يُشَـيِّـعُـه نـصـرُ[2]

كـمـاةٌ إذا ظـلَّ الـكـمـاةُ بـمـعـركٍ
وأرمـاحُـهُم حـمـرٌ وألـوانهـم صـفـرُ[3]

وتـغـلبَ لاقـت غـالـبـاً كـلَّ غـالـبٍ
وبكـرٌ فـألفت حـربنـا بـازلاً بكـرُ[4]

مسـاعٍ يضـلُّ الشعـرُ في كُنْـهِ وصفهـا
فمـا يهتـدي إلاّ لأصغـرهـا، الشِّعـرُ[5]

وهـل خـابَ من جِـذمـاهُ في أصـل طيّءٍ
عـديّ الـعـديـن القَـلَمَّسُ أو عمـرو[6]

(١) الكمي: الشجاع الكامل بالسلاح. والنحر: أعلى الصدر. السحر: الرئة.

(٢) الوغى: الحرب.

(٣) كماة: شجعان.

(٤) البازل: ما بزل نابه من الإبل في السنة التاسعة من عمره. استعارة هنا للحرب.

(٥) الكنه: الحقيقة. يضل: يتيه عن الجادة.

(٦) الجذم: أصل الشيء. القلمس: في الأصل البحر والسيد العظيم.

لنا غررٌ زيديَّةٌ أدديَّةٌ
إذا نَجَمتْ ذلَّت لها الأنجمُ الزهر[1]

لنا جوهرٌ لو خالط الأرضَ أصبحتْ
وبطنانُها منهُ وظهرانُها تبرُ[2]

جديلةُ والغوثُ اللذانِ إليهما
صفتْ أُذُنٌ للمجد ليس بها وقرُ[3]

مقاماتنا وقفٌ على الحلم والحجى
فأمردُنا كهلٌ وأشيبنا حَبْرُ[4]

أَلَنَّا الأكفَّ بالعطايا فجاوزتْ
مدى اللين إلاّ أنَّ أعراضنا صخرُ[5]

كأنَّ عطايانا يُناسبنَ من أتى
ولا نَسَبٌ يدنيه منَّا ولا صِهْرُ[6]

---

(١) نجمت: ظهرت. الأنجم الزهر: المضيئة المتلألئة.

(٢) أي أن جوهرهم أي سرائرهم مثل الجوهر الذي يخالط الأرض.

(٣) الوقر: الثقل في السمع.

(٤) مقاماتنا: مواقعنا ومنتدياتنا. ووقف: مكرسة. الحجى: العقل. الأمرد: الفتى الناشيء. الحبر: العالم.

(٥) العطايا: الهبات.
يقول إن قومه كالبحر في كرمهم.

(٦) يدنيه: يقربه.
أي أن عطاياهم وكرمهم وصل إلى كل الناس.

إذا زينةُ الدنيا من المالِ أعرضتْ
فأزينُ منها عندنا الحمدُ والشكرُ[1]

وكورُ اليتامى في السنين فمن نبا
بفرخٍ له وَكرٌ فنحن له وكرُ[2]

أبى قدرُنا في الجود إلاّ نباهةً
فليس لمالٍ عندنا أبداً قدرُ[3]

وقال يعاتب عياش بن لهيعة[*]:

يضحكنَ من أسف الشباب المدبرِ
فبكينَ من ضحكاتِ شيبٍ مقمرِ[4]

ناوشنَ خيلَ عزيمتي بعزيمةٍ
تركتْ بقلبي وقعةً لم تنصرِ[5]

ولقد بلونَ خلائقي فوجدنني
سمحَ اليدين ببذل ودٍّ مُضْمَرِ[6]

---

(١) أعرضت: مالت وتحولت.

(٢) بفرخٍ له: بولد له. وكر: البيت والملجأ.

(٣) الجود: الكرم. قدر: قيمة.

(*) الديوان ـ ص ـ ٣٨٩، ٣٩٠.

(٤) المقمر: الأبيض.

(٥) ناوشن: حاربن.

(٦) بلون: جربن.

يعجبن منّي أنْ سمحتُ بمهجتي
وكذاك أُعجبُ من سماحةِ جعفرِ[١]

ملكٌ إذا الحاجاتُ لذنَ بحقوهِ
صافحنَ كفُّ نوالِهِ المتيسرِ[٢]

ملكٌ مفاتيحُ الردى بيمينه
وشمالُهُ أُقليدُ باب المعسِرِ[٣]

ملكٌ إذا ما الشعر حار ببلدةٍ
كان الدليلَ لطرفه المتحيرِ[٤]

يا منْ يبشرني بأسبابِ الغنى
منهُ بشائرُ وجههِ المستبشرِ[٥]

أفخر بجودك دون فخرك إنما
جدواكَ تنشرُ عنكَ ما لم تنشرِ[٦]

---

(١) المهجة: الروح. سماحة: كرم.

(٢) لذن بحقوه: التجأن إليه.

(٣) الإقليد: المفتاح.

(٤) أي إذا اختار الشعر في أي مكان يُلقى لأجل العطاء. لا يكون إلاّ بباب عياش. وفي هذا البيت طلب واضح.

(٥) أي أن الغنى لا يكون إلاّ عند عياش وهذا ما يريده الشاعر.

(٦) الجود: الكرم.

ولقلما عبأتُ خيل مدائحي
إلّا رجعتُ بهنَّ غيرَ مُظفَّرِ[1]
وأعوذ باسمكَ أن تكونَ كعارضٍ
لا يُرتَجى وكنابتٍ لم يُثْمِرِ[2]

وقال يرثي أخاً له:

بأرّان لي خلٌّ مقيمٌ وصاحبُ
تهونُ الرزايا بعدَه والمصائبُ
فما فقدُهُ مِنْ صورةِ المجدِ رونقاً
ورُدّت على أعقابهنّ المطالبُ
ولو كان قدرَ المجدِ عندي بكاؤُهُ
لكانتْ دماً فيه الدموعُ السواكبُ
وكنّا معاً من أمِّ دهرٍ ومن أبٍ
عقيدي صفاءٍ لم تخنهُ المصائبُ
فلما تعالى في السموِّ اغتدى بهِ
إلى النقصِ يومٌ لا يُغالَبُ غالِبُ
فأفردت نعتاً من قَذى عينِ كاشحٍ
ومن عاشقٍ فينا إذا اعتامَ راغبُ[3]

(١) الانتجاع: طلب الكلأ من مواضعه.
(٢) المناوىء: المفاخر والمعارض.
(٣) الكاشح: المضمر العداوة. اعتام: اختار.

فـصــرتُ أراهُ بــاقـيــاً وهــو مـيِّــتٌ
وكنتُ أراهُ شـاهـداً وهـو غـائـبُ[1]

تـمكَّـنَ ودٌّ في الـفـؤادِ ومـنـصِـبٌ
بـه جمعتنـا بعـد ذاك المنـاصبُ[2]

أخٌ كـان أدنى من يـدي يـدُ نـصـرهِ
إذا بـسـطت كفًّـا إليَّ الـنـوائـبُ[3]

كـلانـا أصـابَ الموتُ إلاّ حشـاشـةً
من الروحِ تحميها الأمـاني الكواذبُ[4]

وقال يصف حجة حجها:

لـعلَّكَ ذاكـرُ الـطَّللِ الـقـديـمِ
ومـوفٍ بـالعهـودِ على الـرسـومِ

وواصـفُ نـاقـةٍ تَـذَرُ الـمهـاري
مـوكَّـلةٌ بـوخـدٍ أو رسـيـمِ

وقـد أُمِّـمتُ بـيـتَ الله نـضـواً
على عيـرانـةٍ حـرفٍ سـعـومِ[5]

(١) الشاهد: الحاضر.
(٢) المنصب: الأصل والطبع.
(٣) النوائب: المصائب.
(٤) الحشاشة: البقية. الأماني: جمع أُمنية، وهي ما يتمناه الإنسان.
(٥) أممت: قصدت؛ النضو: مصدرها نضا البلاد إذا قطعها في موضع اسم =

أتيتُ القادسيَّةَ وهي ترنو
إليَّ بعينِ شيطانٍ رجيمِ[1]

وبدَّلها السرى بالجهلِ حِلماً
وقدَّ أديمَها قدَّ الأديمِ[2]

أذابَ سنامها قطعُ الفيافي
ومزَّق جلدَها نُضحُ العصيمِ[3]

طواها طيُّها المومـاةَ وخداً
إلى أجبال مكَّةَ والحطيمِ[4]

رَمَتْ خطواتِها ببني خطايا
مُواشِكةً إلى ربِّ كريمِ[5]

= الفاعل أي ناضياً. والعيرانة من الإبل: الشديدة النشاط. والحرف: الناقة العظيمة الصلبة. السعوم: السريعة السير.

(١) ترنو: تنظر.

(٢) الأديم: الجلد.

(٣) السنام: حدبة في ظهر الناقة. الفيافي: الفلوات. العصيم: العرق.

(٤) طواها: أهزلها. طيها: قطعها. الموماة: الفلاة. الموفد: نوع من السير.

(٥) الخطوة: ما بين القدمين. الخطايا: الذنوب والأثام. المواشكة: المسرعة.

بـكـلِّ بـعـيـدةِ الأرجـاءِ تـيـهٍ
كـأنَّ أُوارُهـا وهـجُ الـجحـيـمِ(١)

أقـولُ لـهـا وقـد أوحـت بـعـيـنٍ
إليَّ تشـتكـي الـدنفِ الـسقـيمِ(٢)

يـكـورُك أشـعـرُ الـثـقـلـين طـراً
وأوفى الـنـاس في حسبٍ صميمِ(٣)

---

(١) الأرجاء: النواحي. التيه: المفازة يتاهُ فيها. الأوار: حر الشمس. الوهج: اتقاد النار.

(٢) أوحت: أشارت. الدنف: المريض.

(٣) يكورك: أي يديرك. الأشعر: الأدرك. الثقلين: الإنس والجن، والحسب: الكرم والشرف. الصميم: الخالص.

مصادر ومراجع

١ ـ ديوان أبي تمام، طبعه وشرحه ـ الأديب شاهين عطية ـ دار الكتب العلمية ط١ بيروت ـ ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م.
٢ ـ د. أسعد علي ـ الإنسان والتاريخ في شعر أبي تمام ـ دار النعمان للنشر ـ بيروت ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م.
٣ ـ د. عمر فروخ ـ أبو تمام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله ـ دار لبنان للطباعة والنشر بيروت ـ لبنان. ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م.
٤ ـ أخبار أبي تمام للصولي ـ نشره خليل محمود عساكر، ومحمد عبده عزّام، ونظير الدين الهندي ـ القاهرة ـ ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م.
٥ ـ أعيان الشيعة ـ ج ١٩ ـ أبو تمام. تأليف السيد محسن الأمين ـ دمشق ١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٦ م.
٦ ـ أدبية فارس: الرثاء بين أبي تمام والبحتري والمتنبي ـ الإسكندرية ١٩٣٢ م.
٧ ـ جميل سلطان ـ أبو تمام ـ دمشق: ١٩٥٠ م.
٨ ـ شرح المشكل من ديوان أبي تمام والمتنبي للمبارك بن

أحمد الأربيلي نشره محمد عبده عزّام ـ القاهرة ـ ١٩٣٥ م.
٩ ـ د. شوقي ضيف ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي ـ ط٢ ـ بيروت ١٩٥٦ م.
١٠ ـ العمدة في صناعة الشعر ونقده لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني مصر ـ مطبعة السعادة ١٣٢٥ هـ ـ ١٩٠٧ م.
١١ ـ الأب لويس ـ شيخو ـ شعراء النصرانية بعد الإسلام ـ بيروت ١٩٢٤ م.
١٢ ـ عبد القادر الجرجاني ـ أسرار البلاغة ـ تحقيق هـ. ريتر. استانبول ١٩٥٤ م.
١٣ ـ محمد نجيب البهبيتي ـ أبو تمام الطائي ـ حياته، وحياة شعره ـ القاهرة ١٩٤٥.
١٤ ـ د. شوقي ضيف ـ العصر العباسي الثاني ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٣.

فهرس الموضوعات

١ ـ العصر العباسي ٥
أ ـ الحياة السياسية ٧
ب ـ الحياة الاجتماعية ٢٠
ج ـ الحياة العقلية ٣٢
٢ ـ أبو تمام: ٤٥
أ ـ حياته ٤٧
ب ـ صفاته وأخلاقه ٥٣
ج ـ رأي النقاد فيه ٥٦
د ـ ديوانه ٦١
هـ ـ آثاره ٦٣
٣ ـ فنونه وأغراضه .... ٦٩ ـ ٧١
أ ـ المديح ٧٣
ب ـ الفخر ١٠٤
ج ـ الرثاء ١٠٩
د ـ العتاب ١٢٠
هـ ـ الوعيد والتهديد ١٢٥
و ـ الوصف ١٣٢
ز ـ الغزل والنسيب ١٤٢
ح ـ الحكمة ١٤٨
ط ـ الزهد ١٥٥
٤ ـ الخصائص الأدبية في شعره ١٥٩
٥ ـ نماذج من شعره ١٦٧
المصادر والمراجع ١٧٨